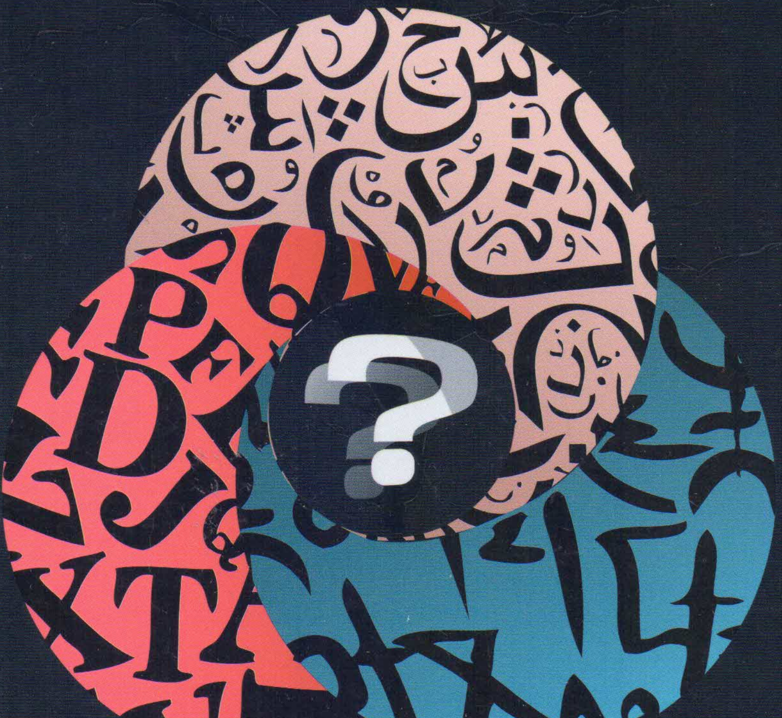
انشقاق الهوية

جدل الهوية ولغة التعليم بالمغرب الأقصى
من منظور تاريخي



الدكتور امحمد جبرون

إن هذه الدراسة مكرسة لمقاربة إشكالية "الهوية ولغة التعليم" من منظور تاريخي تحليلي، ننطلق فيه من التجربة المغربية؛ فهذه الإشكالية ليست حديثة بشكل مطلق في الوطن العربي، فالحديث والطارئ فيها هو حضورها العام في سائر الأقطار العربية، بعدما كانت في الماضي إشكالية البعض منها فقط، وعلى رأس الأقطار التي خبرت هذه الإشكالية وتفاعلت معها منذ زمن طويل المغرب الأقصى. وقد اخترنا المنظور التاريخي لمقاربة هذه الإشكالية تقديرا منا لفائدته الحيوية في بناء الجواب الإستراتيجي العربي عن سؤال الهوية ولغة التعليم، ذلك أن مقاربة موضوع "الهوية ولغة التعليم" من منظور نظري أو تطبيقي/مخبري غير كاف، فمهما بلغت دقة العمل النظري، وفعالية الوسائل والتجارب التطبيقية والميدانية فإن نتائجها تحتاج إلى الخبرة التاريخية.

الثمن: 20 درهما

انشقاق الهوية

جدل الهوية ولغة التعليم بالمغرب الأقصى
من منظور تاريخي

بسم الله الرحمن الرحيم

انشقاق الهوية

جدل الهوية ولغة التعليم بالمغرب الأقصى
من منظور تاريخي

المؤلف: الدكتور امحمد جبرون

الطبعة الأولى: شتنبر 2015

المطبعة: طوب بريس- الرباط

رقم الايداع القانوني: 2015MO3803

ردمك: 978-9954-594-37-7

انشقاق الهوية

جدل الهوية ولغة التعليم بالمغرب الأقصى
من منظور تاريخي

الدكتور امحمد جبرون

مقدمة:

تعتبر الهوية وقضاياها من الإشكاليات الحديثة في التداول الفكري الإنساني، فلا تخلو ثقافة من الثقافات المكونة للنسيج الإنساني على وجه البسيطة من سؤال الهوية ونسله، ويتزامن هذا الاهتمام والحرص مع تنامي مظاهر العولمة الثقافية التي ضيقت كثيرا على الخصوصيات المحلية، وتصاعد نداءات الحفاظ على التنوع الثقافي وصونه على الصعيد العالمي.

ومن ناحية أخرى، تطرح الدينامية التنموية التي تشهدها عدد من الأقطار العربية، واستراتيجيات النهضة والتمكن الحضاري التي تنفذها هاته الأقطار تحديات جدية ومتنوعة أمام التمثل الجماعي والفردي للهوية، بحيث تؤدي إلى اختزالها، أو إعادة تعريفها بشكل ينسجم ويتلاءم مع التطورات الحديثة، ومن ثم فالنقاش حول الهوية في الوطن العربي في السنوات الأخيرة لا ينفصل عن هذا السياق الدولي والمحلي، إن لم نقل هو انعكاس مباشر له.

الإشكالية والسياق:

إن الهوية في معناها المجرد هي جملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة، تستقل بها الذات عن الآخر، فبغياب هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتذوب في الآخر، وبحضورها تحضر.[1] فهذا التعريف النظري للهوية على بساطته وإجرائيته -في الآن نفسه- يخفي انشقاقات عميقة بين الباحثين السوسيولوجيين والأنتروبولوجيين، ومن أبرز وجهات النظر التي تتنازع الصواب بينها في تعريف الهوية: التصور الموضوعاني الذي يعرف الهوية كجوهر ثابت ومستقر يقاوم التطور،

[1] عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص. 68.

وفوق الأفراد والجماعة؛ والتصور الذاتاني الذي ينفي أي طابع موضوعي عن الهوية ويحيلها إلى مجرد إحساس بالانتماء أو تماه مع جماعة متخيلة؛ والتصور العلائقي الذي يحدد الهوية بكونها «بناء يُبنى في علاقة تقابِل فيها مجموعة مجموعات أخرى تكون في تماس معها (فريدريك بارث Fredrik Barth)».[1]

إن هذه التصورات من منظور تكاملي يأخذ كل منها بطرف من الحقيقة، فكل واحد منها يوافق مجال علمي أكثر من غيره، ويستجيب لمقاربات منهجية محددة. وإذا كان لابد من المفاضلة بينها واختيار أحدها أساسا نبني عليه في هذه الدراسة، فإننا سنختار التصور الموضوعاني مع بعض التعديل، مراعاة للطبيعة التاريخية لهذا العمل، فللظفر بحقيقة تأثير لغة التعليم على الهوية في المغرب الأقصى لابد من حدود ثابتة في المعادلة، وتقليص حجم المتغير فيها، وقد اخترنا مفهوم الهوية كأحد الحدود الثابتة، دون أن نصحب معنا الموقف اللصيق بهذا التصور، الذي يفيد جمود مفهوم الهوية وعدم تطوره.

فانطلاقا من هذه المقدمة النظرية يمكن اشتقاق مفهوم الهوية العربية بصورة تناسب موضوع هذه الدراسة واختياراتها المنهجية، وهو ما يمكن صوغه على النحو التالي: الهوية العربية هي مجموع الخصائص التي تميز الجماعة العربية عن غيرها من الجماعات الإنسانية، وعلى رأس هذه الخصائص المميزة: اللغة العربية؛ والدين الإسلامي؛ والحضارة العربية- الإسلامية. فالوجود العربي في التاريخ والحاضر الإنساني مرتبط بهذه الخصائص واستمراريتها، ولا يتصور وجود بعيدا عنها.

فالهوية العربية اليوم في أبعادها الثلاث تواجه تحديات صعبة، بعضها يرتبط بضغوطات العولمة، ونفوذ النموذج الغربي، والبعض الآخر يرتبط بمقتضيات النهضة والتقدم في المجال العربي، ومن جملة هذه التحديات: "لغة التعليم والبحث العلمي" التي

---

[1] دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة د. منير السعيداني، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. 1/ 2007، ص. 149- 154.

هي في عدد من البلاد العربية لغة أجنبية، إما فرنسية أو إنجليزية؛ فابتداء نفترض أن اللغة المستعملة في عدد من المؤسسات التعليمية العربية، ومراكز البحث العلمي...، لها انعكاس مباشر على تعريف الهوية العربية وآفاقها، وللحد من التأثيرات السلبية لهذا التحدي على استقرار الهوية وتطورها السلس، لابد من الإدراك الكلي أو الشمولي للتفاعل القائم بينها من جهة، وبين لغة التعليم من جهة ثانية من منظورات معرفية مختلفة، واستنادا إلى نماذج ملموسة، ومن ثم، فهذه الدراسة في شكلها ومغزاها، هي معالجة علمية - تاريخية لهذه الفرضية.

إن الإدراك العلمي للعلاقة القائمة بين اللغة والهوية في المجال العربي سيؤدي حتما إلى انبثاق "سياسة لغوية"[1] ناجعة تصون مفردات الهوية وتثريها من جهة، وتساهم في تحرير إرادات التنمية والنهوض من جهة ثانية، والظاهر اليوم من خلال أكثر من تجربة عربية ضعف الاهتمام بالسياسات اللغوية، وعدم استقرارها، ونتيجة لذلك فشل "التخطيط اللغوي"، ولا أدل على ذلك اجتياح اللغات الأجنبية لمناطق حساسة من مجالنا العربي دون أن تكون لنا القدرة على إخضاعها للمقتضى الثقافي والتنموي العربي.

فعلاقة اللغة بالهوية علاقة معقدة، وبالغة الحساسية، وجانب من حساسية هذه العلاقة يكمن في شكلها النظري؛ فاللغة ليست معادل تام لجنس الهوية، ولا تستقل عنها، بل هي جزء منها، وأهم مكوناته الدينامية، وبالتالي طرح الموضوع على هذا النحو، أي علاقة الجزء المنتمي للجنس بكل الجنس (الهوية) القصد منه وضع علاقة

[1] إن أول من استخدم مفهوم السياسة اللغوية في المجال التداولي الإنجليزي فيشمان (Fishman) في كتاب يحمل نفس العنوان سنة 1970، ثم ظهر في بقية اللغات بعد ذلك كالإسبانية والألمانية والفرنسية،...، وقد عرفها كالفي على النحو التالي: «السياسة اللغوية هي مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبالتحديد بين اللغة والحياة والوطن». (لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة د. حسن حمزة، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. 1/ 2008، ص. 221، 224؛ لويس كالفي، السياسات اللغوية، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط. 1/ 2009، ص. 10، 11).

هذا الجزء بكله تحت المجهر، ومن ثم تحليل طبيعة هذه العلاقة، واكتشاف تطوراتها، والتأثيرات المتبادلة بين طرفيها.

فاللغة منظورا إليها من زاوية الهوية ليست مجرد أداة تواصلية محايدة وسلبية، وإنما هي كائن إيجابي وفعال في إعادة إنتاج ذات الهوية، وتطويرها، أو -عكس ذلك- تدهورها وتحللها، بالإضافة إلى أنها أحد أركانها وأنحائها الكبرى، ولإدراك هذه الحقيقة بصورة أفضل نسوق مثال تركيا الكمالية، لقد كان مصطفى كمال (أتاتورك) يدرك جيدا طبيعة العلاقة بين اللغة العربية والهوية العثمانية لتركيا، القائمة على الإسلام، ولهذا أسرع باستهداف طرفي هذه العلاقة من خلال مشروع "الثورة اللغوية" التي استهدفت تعزيز مكانة اللغة التركية وتصفية الوجود اللغوي العربي، وفي النهاية ترسيخ العلمانية. ومن أهم قرارات هذه "الثورة": وضع أبجدية لاتينية للغة التركية (1928)، إلغاء تعليم العربية (1929)، إلزام الأتراك بقراءة القرآن بالتركية بدل العربية (1931)، إلزام الأتراك التسمي بأسماء تركية (1934)،[1] الشيء الذي جعل هذه الثورة -على حد قول لويس جان كالفي- «ترجمة لغوية لمعركة علمانية تحديثية معادية للعثمانية».[2]

فإذا كان هذا شأن اللغة بشكل عام إزاء الهوية، فهل يستمر نفس الوضع في حال دخول لغة أخرى غريبة عن "ذات الهوية" إلى مجالها السيادي من باب التعليم أو البحث العلمي؟، هل تستطيع الهوية مقاومة التأثيرات السلبية للّغة الوافدة؟، كيف يمكن تسوية هذا الاضطراب الهوياتي، هل بإقصاء اللغة الوافدة والانغلاق على الذات أم بالاستيعاب العقلاني لها؟.

---

[1] كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، م. س. ص. 261- 263.

[2] نفسه، ص. 264.

ففي الحالة العربية تقوم اللغة العربية اليوم بمجموعة من الوظائف الحساسة لصالح الهوية (الدين، والتراث، والتاريخ...)،[1] إذ تساهم في إنتاجها وتعبر عن كينونتها، وفي هذا السياق يقول أحد كبار الباحثين المغاربة عن الوظيفة الدينية للغة: «لا يتصور عقلا الحفاظ على القرآن دون الحفاظ على لغته، لأن لغته جزء لا يتجزأ منه».[2] غير أن استقرار هذه العلاقة التبادلية بين الطرفين سرعان ما تختل بسبب دخول اللغة الأجنبية إلى مجالها السيادي، دخولا غير مدروس. وبالرغم من أن اللغة الدخيلة تستمد شرعية دخولها من حاجة حضارية وجيهة، يطلق عليها بعض المختصين حاجة الإثراء الحضاري وتوسيع آفاق الفكر،[3] فإنها عمليا لا تقف عند حدود هذه الحاجة، بل تسعى شيئا فشيئا إلى منافسة اللغة الأصل في وظائفها، بما فيها تلك الشديدة الصلة بالهوية، وهو ما يؤدي إلى زعزعة الأمن الهوياتي وإضعاف معاني الانتماء.

ومن ثم، فلغة التعليم والبحث العلمي والنشر الأكاديمي إذا كانت بغير لسان الهوية، ومدمجة بشكل غير مدروس، تفتن هذه الأخيرة، وتبعثر قوانينها، وهو ما يقتضي الالتفات نحو الأسئلة التي تطرحها بأقصى سرعة ممكنة، حتى نضعف "حكم الواقع" ونقوي "حكم العقل" في مصيرنا العربي.

---

[1] يجب الانتباه إلى أن مفهوم الوظيفة في سياق هذا البحث يختلف عن مفهومها لدى عدد من علماء اللغة المعاصرين، فالوظائف التي نبحثها هنا تتعلق أساسا بطبيعة الأدوار السوسيولوجية للغة، وهو خلاف مذهب بعض علماء اللغة، الذين اعتنوا بدراسة اللغة ككيان مجرد، وخاصة منهم مالينوفسكي، والنمساوي كارل بيولر، وجاكبسون، وبريتون، ودريموند موريس، والإنجليزي هاليداي... وحول هذه الوظائف انظر: م. أ. ك. هاليداي، وظائف اللغة، ترجمة محمود أحمد نحلة، مجلة اللسان العربي، العدد، 54، سنة 2002.

(http://arabization.org.ma/magazinefiles/54/pdf/103.pdf)

[2] عبد العالي الودغيري، اللغة والدين والهوية، م. س. ص. 54.

[3] «لقد تحدث J. Fshaman عن أصناف الازدواجية وحصرها في ثلاثة نماذج أساسية هي: النموذج التعويضي الذي يرمي إلى إدماج الطفل في الثقافة السائدة، النموذج الذي يرمي إلى الاحتفاظ باللغة المستضعفة، نموذج الإثراء وهدفه هو توسيع آفاق الفكر والعاطفة عند المتعلم» (إدريس السغروشني، الآثار الناجمة عن ازدواجية اللغة في تكوين الملكة اللغوية العربية في المراحل الأولى من التعليم، ضمن أعمال ندوة أكاديمية المملكة المغربية حول "قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1993، ص. 111، 112).

إن هذه الدراسة مكرسة -إذا- لمقاربة إشكالية "الهوية ولغة التعليم" من منظور تاريخي تحليلي، ننطلق فيه من التجربة المغربية، فهذه الإشكالية ليست حديثة بشكل مطلق في الوطن العربي، فالحديث والطارئ فيها هو حضورها العام في سائر الأقطار العربية، بعدما كانت في الماضي إشكالية البعض منها فقط، وعلى رأس الأقطار التي خبرت هذه الإشكالية وتفاعلت معها منذ زمن طويل المغرب الأقصى. وقد اخترنا المنظور التاريخي لمقاربة هذه الإشكالية تقديرا منا لفائدته الحيوية في بناء الجواب الإستراتيجي العربي عن سؤال الهوية ولغة التعليم، ذلك أن مقاربة موضوع "الهوية ولغة التعليم" من منظور نظري أو تطبيقي/مخبري غير كاف، فمهما بلغت دقة العمل النظري، وفعالية الوسائل والتجارب التطبيقية والميدانية فإن نتائجها تحتاج إلى الخبرة التاريخية. كما أن مساحة النسبية التي يمكن اعتبارها آفة العلوم الإنسانية تضيق وتتقلص مع تعدد المنظورات المنهجية للظاهرة المعرفية، وبالتالي تكون المقاربة التاريخية متممة لأخواتها في معالجة إشكالية "الهوية ولغة التعليم".

فانطلاقا من هذه القناعة المعرفية والمنهجية اخترنا معالجة إشكالية "الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى" من منظور تاريخي، ولبلوغ الغاية من هذه المعالجة، عمدنا إلى تفكيك إشكالية البحث، وتقسيمها إلى محورين: يتناول أحدهما "الفتح العربي" والثاني "الغزو الفرنسي"[1] وتأثير كل منهما على هوية المغرب الأقصى، وسنحاول فيما يلي توضيح هذين المحورين:

1- كان المغرب الأقصى في السنوات الأولى بعد الفتح الإسلامي أمازيغي اللغة والهوية، بالرغم من اعتناق طائفة واسعة من أبنائه الإسلام، لكن مع تقدم الزمان، وتوالي السنين حصل تحول كبير في بنية الهوية المغربية، وأخذت شيئا فشيئا طابعها العربي، بعد تعرب أنحاء مهمة من النشاط الحضاري، وخاصة على المستوى الثقافي والسياسي والإداري، ولم يؤد هذا التحول إلى اندثار اللغة الأمازيغية، وغيابها

[1] نقصد من خلال هذا التعريب الجانب اللغوي وليس الجانب السياسي.

من المشهد، بل على العكس من ذلك حافظ على وجودها، وتقاسمت الوظائف مع اللغة الجديدة بنوع من التكامل. وقد كان لانتشار التعليم العربي أو التدريس بالعربية، باعتبارها لغة الدين، أثر حاسم في هذا التطور الذي شهدته الهوية المغربية.

إن أول قرار اتخذه الأمازيغ عند استقبالهم طلائع الفتح الإسلامي بعد أخذ ورد هو اعتناق الإسلام واتباع هديه، والتسليم لقادته من العرب، ولم يكن من مقتضى هذا القرار ومفهومه تبديل اللسان، وترك اللغة الأم، واتخاذ لغة الفاتحين. فالتطور الذي عرفته الهوية الأمازيغية لحظة الفتح مس المكون الديني منها بالأساس، وأبقى على سائر المكونات الأخرى كما هي دون تغيير بما فيها مكون اللغة، غير أن اتساع رقعة الإسلام ببلاد الأمازيغ من جهة، واستقرار عدد من الفاتحين العرب بها من جهة ثانية، وطبيعة العلاقة التي تجمع الإسلام باللغة العربية من جهة ثالثة فتحت الباب أمام دخول اللسان العربي إلى المغرب الأقصى دون أن يصبح مكونا هويتيا في ذلك التاريخ المتقدم.

وبالتالي، أدى رسوخ العوامل السالفة مع مرور الزمان (الإسلام، والاستقرار العربي، ومقتضيات التدين) إلى انتساب العربية إلى الهوية المغربية ومشاركتها الأمازيغية النفوذ والتأثير، الشيء الذي أهلها مع مرور الوقت للاضطلاع بأدوار حيوية في القرون التالية للفتح، حيث ساهمت بقوة في تعريب الحضارة المغربية في العصر الوسيط وبالتالي صياغة الهوية العربية للمغرب الإسلامي، بعد أن أمست لغة الثقافة والحضارة بالإضافة إلى كونها لغة الدين، ولغة شريحة واسعة من سكان المغرب الأقصى.

ومن ثم يقتضي تحليل تأثير لغة التعليم (العربية) على الهوية من منظور تاريخي، واستنادا إلى تجربة المغرب الأقصى تناول أربع عناصر معرفية بمنهج تاريخي تحليلي:

- الهوية المغربية قبيل الفتح الإسلامي

- ظهور التعليم العربي بالمغرب الأقصى وتطوره المجالي والنوعي.
- مقاومة الأمازيغية لنفوذ العربية ومحاولات تمزيغ الإسلام.
- تأثير اللغة العربية على هوية المغرب الأقصى.

وتجدر الإشارة في ختام هذه الفقرة إلى أن الدراسات التاريخية حول الهوية ولغة التعليم بالمغرب الأقصى في العصر الوسيط تكاد تكون منعدمة، فلم نعثر أثناء تقليب فهارس البحث المغربي والعربي على أي دراسة في هذا الباب، وأقصى ما وجدناه دراسات وأبحاث تتناول قضايا وجزئيات الإشكالية العامة، أتينا على ذكرها، والإفادة منها في ثنايا هذه الدراسة، ولا داعي لإطالة الحديث عنها هنا.

2- إن إشكالية الهوية ولغة التعليم في التاريخ المعاصر للمغرب الأقصى تتخذ بعدا مختلفا عن البعد السالف الذكر، فقد عرفت هذه الفترة دخول اللغة الفرنسية إلى المجال التداولي المغربي، مدعومة من طرف المستعمر الفرنسي، وأريد لها أن تكون لغة إدارة الاحتلال، وأحد وسائل السيطرة والنفوذ الاستعماري. ولتحقيق هذه الأهداف بلورت سلطات الاحتلال الفرنسي - ومنذ سنواتها الأولى- سياسة لغوية محكمة توخت سلب العربية بعض وظائفها التاريخية وتفويتها للُّغة الدخيلة. وبالرغم من قصر المدة التي قضاها الاحتلال الفرنسي في التراب المغربي والتي لا تتجاوز 44 سنة، فإن آثار اللغة الفرنسية على الهوية المغربية كان واضحا سواء في أبعادها الدينية أو الثقافية أو الحضارية.

ولم تنته محنة الهوية المغربية مع الفرنسية باستقلال المغرب وانسحاب الفرنسيين منه، بل ستتفاقم أكثر بعد فشل الحكومات المتعاقبة بعد الاستقلال في إعادة العربية إلى مكانتها السابقة، وتعثر مشاريع التعريب في الإدارة والتعليم والاقتصاد...، ومن أولى علامات تدهور الهوية في المغرب الأقصى التي تسببت فيها الفرنسية تراجع مكانة العربية في الحياة العامة، واختلال مفهوم الدين، وتلاشي مفهوم الانتماء الثقافي والحضاري لدى الفئة الفرانكفونية.

وهكذا، فتحليل تأثير اللغة الفرنسية على الهوية العربية للمغرب يقتضي الوقوف عند العناصر التالية:

- استخدام اللغة الفرنسية في التعليم: البدايات والتطور.
- النخبة المفرنسة بالمغرب الأقصى بعيد الاستقلال.
- "التوسع الوظيفي" للفرنسية في مغرب الاستقلال.
- تأثير اللغة الفرنسية على الهوية المغربية.

وتجدر الإشارة - كذلك- في هذا السياق إلى أن الدراسات والأبحاث التاريخية حول تأثير اللغة الفرنسية على الهوية المغربية قليلة جدا، مقارنة بالأبحاث التي تناول السياسة اللغوية أو التعليمية لسلطات الحماية ودولة الاستقلال بشكل جزئي ومن منظورات معرفية غير تاريخية، وسنعود في ثنايا البحث إلى أكثر من مرجع في هذا الباب.

المنهج:

إن موضوع "لغة التعليم والهوية" منظورا إليه من زاوية التاريخ موضوع شاق، وثقيل على المؤرخين في السياق الثقافي العربي، نظرا لطبيعته المجردة، فالإخباريون الأول، والمدونون، وأصحاب السير... لم يتسع أفقهم الفكري في القرون الأولى من تاريخنا العربي لذكر أخبار "مجردة" بشكل واسع. وبالرغم من هذه الصعوبة حاولنا صيد الأخبار، وكل نادرة وشاردة، من أجل بناء نص تاريخي مقنع، يسلط الضوء على التطورات التاريخية للغة التعليم في علاقتها بالهوية بالمغرب الأقصى في لحظتين تاريخيتين دالتين، وللإشارة فمعظم هذه الأخبار، أخبار تاريخية مادية، أو قرارات ثقافية ملموسة، وسنعود للحديث عنها في الصفحات التالية.

وبغض النظر عن الصعوبة السالفة فقد توسلنا لإنتاج خطاب تاريخي متماسك حول موضوعنا بمنهج تاريخي واضح، وله نفوذ واسع في صفوف المؤرخين المعاصرين من العرب وغيرهم، وهو المنهج "الوضعي" (Positivisme)، الذي يمتاز بخاصيتين:

- الأولى: لا يعترف بأي معرفة تاريخية لا تستند إلى الوثائق، فكل استنتاج أو خبر لا تدعمه الوثائق الصحيحة، هو استنتاج ضعيف، وخبر واه؛[1]

- والثانية: يعتمد بشكل كبير على نقد الوثيقة، فلا تاريخ بدون وثيقة، ولا تاريخ -أيضا- بدون نقد، ومن أبرز أنواع النقد الوضعاني: نقد المصادر، نقد التفسير، نقد صدقية وأمانة الوثيقة.[2]

ومن أشهر منظري هذا المنهج، الذي استفدنا من إشاراته في هذه الدراسة الفرنسي "شارل سنيوبو" (Charles Seignobos)، الذي عاش ما بين 1854 و1942م، مؤلف كتاب "المنهج التاريخي التطبيقي في العلوم الاجتماعية"؛ الذي أفصح فيه بالتفصيل عن مقومات المنهج الوضعي في الدراسة التاريخية.

فموضوع "جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي" سنقاربه "وضعيا" من خلال وحدتين زمنيتين: الأولى وسيطية، والثانية تبتدئ من أواخر القرن 19 إلى نهاية عقد السبعينيات من القرن الماضي. وسنعاني أثناء ذلك -وبسبب المنهج- من نقص المادة المصدرية (الوثائق) في بعض الأحيان، وهو ما سيجعل الخطاب متموجا يتأرجح بين الغنى والفقر.

وفي هذا السياق، لابد من الإشارة إلى خصوصية توظيف هذا المنهج في معالجة إشكالية هذا البحث، فالخطاب التاريخي الذي نروم إنتاجه حول لغة التعليم والهوية بالمغرب الأقصى، ليس خطابا جامدا، كلاسيكيا، يقف عند المعنى الظاهر

[1] Charles Seignobos, La Méthode historique appliquée aux science sociales, Paris, éditeur Félix Alcan et Guillaumin Réunjes, 1909, p. 17- 28.

[2] Ibid., pp. 29- 77.

للنص التاريخي، وإنما خطابا تحليليا يصل المفردات والأحداث التاريخية بعضها ببعض، ويضفي على النصوص التاريخية معاني في الغالب أبعد من تلك الظاهرة، التي يتناولها أغلب الناس، ونضرب لذلك مثل نصوص المتنبئين بالمغرب في العصر الإسلامي، وتحديدا "قرآن" حاميم الغماري، و"قرآن" صالح البرغواطي، التي رأى فيهما جمهور المؤرخين ضلالات محلية، وهي كذلك، وهذا هو معناها القريب، غير أننا، من منطلق إشكالية البحث، وسياق التحليل، رأينا فيها دليلا على مسعى محلي لتمزيغ الإسلام...، وبالتالي اضطرتنا إشكالية البحث في كثير من المناسبات، أن نخلع معاني جديدة على نصوص وأحداث مألوفة، لتحقيق بعض التطورات النوعية في مسار البحث.

المصادر:

أثناء بحثنا في الجدل والتفاعل القائم بين لغة التعليم والهوية في مغرب الفتح رجعنا إلى طائفة واسعة من المصادر، يمكن تقسيمها إلى ثلاث أنواع:

- قسم مشرقي، ومن أشهر عناوينه: "فتوح البلدان" للواقدي (ت. 207هـ)، فتوح مصر والمغرب" لابن عبد الحكم (ت. 257هـ)، و"فتوح البلدان" للبلاذري (ت. 279هـ)، و"مروج الذهب" للمسعودي (ت. 345هـ)، وعددا من النصوص الجغرافية القديمة مثل "كتاب البلدان" لليعقوبي (ت. 284هـ)، و"صورة الأرض" لابن حوقل (ت. قريبا من 400هـ)، و"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للبشاري (ت. حوالي 390هـ)....

- قسم إفريقي، نسبة إلى إفريقيا (تونس الحالية)، ومن أبرز عناوينه: "كتاب طبقات علماء إفريقية" لأبي العرب محمد بن تميم (333هـ)، و"رياض النفوس" لأبي بكر عبد الله المالكي المتوفى بعد 460هـ، "معالم الإيمان" لأبي زيد الدباغ (ت.605هـ)، "تاريخ إفريقية" للرقيق القيرواني كان حيا سنة 425هـ....

- قسم مغربي، ألفه كتاب من المغرب الأقصى، ومن أبرز عناوينه: كتاب "العبر" لابن خلدون (ت. 808هـ)، و"البيان المغرب" لابن عذاري المتوفى قريبا من منتصف القرن 8هـ، و"الأنيس المطرب بروض القرطاس" لابن أبي زرع المتوفى في بداية المائة الثامنة، وكتاب "الحلل الموشية" لمجهول، و"التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات التادلي (ت. 6)، "مفاخر البربر" لمجهول، "المدارك" للقاضي عياض (ت. 544هـ)....

إن هذه الأقسام الثلاث من المصادر متفاوتة الأهمية بالنسبة لموضوعنا، ووجب التعامل معها بحذر نظرا لعدد من النواقص التي تشوبها، فبالنسبة للنوع الأول، وبالرغم من معاصرته للأحداث التي تناولها في بحثنا فمعظم كتابها كانوا بعيدين عن موقع الأحداث، ونقلوا عن رواة لم يكونوا حريصين على الحقيقة التاريخية بما يكفي، بالإضافة إلى خاصية الاختصار التي طبعت معالجتهم لأحداث المغرب، أما بالنسبة للنوع الثاني من هذه المصادر فقد قصر أصحابها نظرهم على إفريقية واعتنوا برجالها وأحداثها، ولم يتعرضوا إلا نادرا لأحوال المغرب الأقصى، وبالرغم من ذلك فهي تحتوي على معطيات نوعية بالنسبة لموضوعنا، أما النوع الثالث من هذه المصادر الذي ألفه مغاربة، فعلى أهميته وتناوله تفاصيل الوضع التاريخي المغربي، فإن جل مؤلفيه عاشوا بعد المائة السادسة، الشيء الذي جعل حديثهم عن الأخبار الأولى للمغرب الأقصى موضع تساؤل.

إن إدراكنا المسبق لمحدودية الثروة المصدرية التي بين أيدينا، جعلنا من الناحية المنهجية نرقص بين ثلاث عوالم، نحاول الإفادة من إيجابيات كل منها، في مسعى لبناء صورة تاريخية مكتملة القوام.

أما فيما يتعلق بوحدة البحث الثانية والتي تمتد من أواخر القرن 19 إلى عقد السبعينيات من القرن الماضي، فقد رجعنا فيها إلى طائفة متنوعة من المصادر، من أبرزها:

- الجريدة الرسمية للمملكة المغربية التي صدرت أعدادها الأولى سنة 1913م؛

- نصوص وقرارات بعض أركان السياسة الاستعمارية، وأهمها النصوص التي ترجمها عبد العالي الودغيري في كتابه "الفرانكفونية والسياسة اللغوية"، ومن أهم ما تحتويه دورية ليوطي الشهيرة؛

- مجلات ودوريات صدرت في فترة البحث، كمجلة أقلام، ومجلة أنفاس بطبعتيها العربية والفرنسية، ومجلة رسالة الأديب؛

- تقارير ومحاضر اجتماعات مثل تقرير خمسينية الاستقلال، ومحضر اجتماعات إيكس ليبان؛

- مذكرات أقطاب الحركة الوطنية مثل مذكرات محمد حسن الوزاني، ومذكرات أبي بكر القادري، وكتاب النقد الذاتي لعلال الفاسي؛

- شهادات مباشرة استقيناها من أفواه عدد من المسؤولين الذين كان لهم دور في سنوات الاستقلال الأولى، ومن أهم هذه الأسماء الدكتور محمد بالبشير الحسني؛

إن هذه المجموعة المصدرية كافية لصياغة خطاب تاريخي متوازن ومقنع حول موضوع الدراسة، غير أن المشكل الذي يحايثها، والذي يجب الحذر من تداعياته على الموضوعية، وبنية الخطاب، هو زيادة المادة المصدرية عن الحد، الشيء الذي يمكن أن يظلل البحث، ويشعبه إلى مسالك متعددة، إذا لم ينتبه الباحث، ولتجاوز هذه الآفة لابد من ممارسة قدر غير قليل من الانتقائية في التعامل مع المعطيات، وقد قمنا ببعض من ذلك، دون التنازل عن مطلب الموضوعية.

الفصل الأول:

الـمغرب الأقصى:
من الهوية اللاتينية ـ الأمازيغية إلى الهوية الإسلامية ـ العربية خلال العصر الوسيط.

لقد شكل حدث الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى في نهاية القرن الأول الهجري، منعرجا تاريخيا كبيرا، يعتبر -بدون مبالغة- ولادة جديدة لهذا الكيان، غيرت أسماءه ومسمياته، فانطلاقا من هذا الحدث أخذ المغرب الأقصى في اكتساب مفردات هوية جديدة، والتخلي تدريجيا عن الهوية البائدة، وقد استغرق هذا التحول الهوياتي حتى استوى على سوقه، واكتملت صورته، قرابة ثلاثة قرون (من ق.1هـ حتى متم 4 هـ). وفي هذا السياق التاريخي المميز لم تكن اللغة العربية سلبية أو محايدة، حيث ساهمت من خلال الوظائف التي اضطلعت بها على المستوى الديني والثقافي بفعالية في صبغ هذا التحول، وإكساب المغرب هويته العربية- الإسلامية، فكيف تم ذلك؟ وما قصته؟.

ففي هذا الفصل سنحاول تحليل عملية الانتقال التاريخي من الهوية اللاتينية- الأمازيغية نحو الهوية العربية- الإسلامية، التي دشنها الفتح الإسلامي في المغرب الأقصى، وفي صلب ذلك الكشف عن دور لغة التعليم العربية في هذا التحول، وذلك انطلاقا من المحاور التالية:

1- هوية المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي.
2- ظهور التعليم العربي بالمغرب الأقصى وتطوره المجالي والنوعي.
3- مقاومة الأمازيغية لنفوذ العربية ومحاولات تمزيغ الإسلام.
4- تأثير اللغة العربية على هوية المغرب الأقصى.

1- هوية المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي:

إن مناقشة مسألة الهوية في المغرب الأقصى في هذا التاريخ المتقدم مسألة بالغة التعقيد، ومحفوفة بالمخاطر المنهجية والمعرفية، وذلك لقلة المصادر التاريخية التي تتناول هذه الحقبة من جهة، وإهمال هذا القليل لخبر الهوية وما يتصل بها من جهة ثانية. وبالرغم من هذه الصعوبات سنحاول خوض هذه التجربة المعرفية وتدبير "الندرة التاريخية" في أفق بناء وجهة نظر علمية تاريخية منسقة ومتوازنة حول الهوية المغربية في حقبة الفتح الإسلامي.

توجد أخبار المغرب الأقصى في بداية العصر الوسيط متفرقة بين عدة مظان، بعضها شرقي ألفه بعض المؤرخين العرب مواكبة منهم للفتح والدولة الإسلامية في شمال إفريقيا، وأبرز مظهر لهذا النوع كتب "فتوح البلدان"، وبعض النصوص الجغرافية الأخرى، والبعض الآخر مغربي، ألفه مؤرخون مغاربة، لكنه متأخر عن الأول بعض الشيء. ومن أهم مصادر الصنف الأول: كتاب "فتوح البلدان" للواقدي (ت. 207هـ)، و"فتوح البلدان" للبلاذري (ت. 279هـ)، و"مروج الذهب" للمسعودي (ت. 345هـ)، وعددا من النصوص الجغرافية القديمة مثل "كتاب البلدان" لليعقوبي (ت. 284هـ)، و"صورة الأرض" لابن حوقل (ت. قريبا من 400هـ)، و"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للبشاري (ت. حوالي 390هـ)، و"المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" للبكري (ت. 487هـ)....

ومن أهم مصادر الصنف الثاني: كتاب "العبر" لابن خلدون (ت. 808هـ)، و"البيان المغرب" لابن عذاري المتوفى قريبا من منتصف القرن 8هـ، و"الأنيس المطرب بروض القرطاس" لابن أبي زرع المتوفى في بداية المائة الثامنة، وكتاب "الحلل الموشية" لمجهول...، فانطلاقا من هذه المظان، سواء الشرقية أو المغربية، سنحاول اكتشاف عناصر الهوية المغربية لحظة الفتح الإسلامي.

لم يكن المغرب الأقصى لحظة قدوم طلائع الفاتحين صفر اليدين من الناحية الحضارية والثقافية، فموقعه المتميز الذي جعل منه ملتقى التيارات الحضارية الكبرى المشرقية والغربية من جهة، وتاريخه العريق من جهة ثانية، مكّاه من اكتساب هوية متفردة الخصائص. وتتجلى فرادة هذه الهوية وخاصيتها في مستويين اثنين: الديانة، واللغة، أما على مستوى الثقافة والحضارة فلم يتمكن المغاربة من التميز عن غيرهم من الشعوب المتوسطية بإنجازات نوعية، وخصائص مستقلة قادرة على صوغ مفهوم خاص للهوية الحضارية في المغرب الأقصى قبل الإسلام، ولعل المانع من ذلك النزول الكثيف للحضارات المتوسطية ببلاد البربر كالفنيقية، والبونيقية، واليونانية، والرومانية، والوندالية، والبيزنطية. وسنحاول فيما يلي تقديم فكرة موجزة عن عنصري الدين واللغة في المغرب الأقصى قبيل الفتح، بصورة تساعدنا على فك مستغلقات هذه الدراسة.

أ- الديانة:

كان المغرب الأقصى في بداية القرن السابع الميلادي ومنتصف القرن الأول الهجري يعج بالديانات والملل، بعضها سماوي المصدر، والبعض الآخر وضعي بشري، ومن أشهر هذه الديانات التي لقيها الفاتحون في طريقهم، وذكرها مؤرخو الفتوح:

- النصرانية: لقد استقرت النصرانية في شمال إفريقيا منذ بداية ق 2م، وانطلقت من المدن الساحلية، ومنها توغلت في المدن الصغيرة الداخلية. واستطاعت طائفة مهمة من أمازيغ شمال إفريقيا اعتناق الديانة الوافدة، وتأسيس كنيستها المستقلة، التي توافقت حينا مع الدولة الرومانية، وتصارعت معها حينا آخر.[1] وعند وصول طلائع الفاتحين إلى بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن 7م، وجدوا في

[1] عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج. 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 3/ 1992، ص. 59- 61. محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، منشورات مجلة تيفاوت، العدد 10/ 1997، ص. 26، 27.

طريقهم أمما من النصارى البربر والروم، فقد ذكر ابن عذاري في خبر عقبة بن نافع أن النصارى كانت تهرب من طريقه يمينا وشمالا وهو يستفتح البلدان ويغزو في سبيل الله.[1]

وقد استقرت المسيحية في المغرب الأقصى في الحواضر والأمصار الشمالية كطنجة، وسبتة، ووليلي.... ونعلم من خلال أخبار الفتح المتواترة أن الأمصار الشمالية، وبشكل خاص مدينتي سبتة وطنجة، كانتا تحت حكم الملك المسيحي يوليان. وتذكر بعض الروايات التاريخية أن عقبة بن نافع عند دخوله المغرب الأقصى اجتمع به وسالمه، قبل اتجاهه نحو الجنوب. ولم تنجح المسيحية في مجاوزة الشريط الساحلي، والانتشار وسط المغرب الأقصى وجنوبه، الذي كان مستقلا عن البيزنطيين، حيث حافظ البربر في الغالب على معتقداتهم المحلية القديمة، وقد أكد هذه الحقيقة يوليان لعقبة بن نافع عندما قال له «وما أمامك [أي خارج ملكه] إلا البربر، وهم مثل البهائم، لم يدخلوا في دين نصرانية ولا غيرها».[2] وبالرغم من محدودية انتشار المسيحية في المغرب الأقصى، واقتصارها على الهوامش الساحلية من البلاد، فإنها استطاعت الحفاظ على وجودها والتعايش مع الإسلام إلى حدود القرن 11م تقريبا، حسب إفادة بعض المؤرخين، مستفيدة في ذلك من مناخ الحرية الدينية الذي أشاعه الإسلام في المغرب الأقصى.[3]

- اليهودية: تعتبر الديانة اليهودية ثاني الديانات السماوية التي اعتنقها بعض البربر في المغرب الأقصى، ولا يعرف تاريخ محدد لظهور هذه الديانة بشمال إفريقيا فابن خلدون على سبيل المثال يعتقد أن اليهودية جاءت بلاد البربر، قادمة من الشام، بعد

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج.1، دار الثقافة، بيروت، ط. 2، 1980، ص. 24.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 1، م. س. ص. 26. شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1969، ص. 279، 304. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط. 6، ص.494.

[3] شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، م. س. ص. 385.

استفحال ملك بني إسرائيل،[1] في حين أشار "أندري شوركي" (André Chouraqui) في كتابه تاريخ إفريقيا الشمالية إلى لجوء اليهودية إلى شمال إفريقيا بعد هزيمتها في عقر دارها أمام الأراميين.[2]

- المعتقدات الوثنية: كانت بلاد البربر قبيل الفتح الإسلامي تعج بالمعتقدات الدينية الوضعية والوثنية، بعضها محلي النشأة، والبعض الآخر وافد على المغرب الأقصى من جهة الشرق أو جهة الشمال.[3] وقد قام الأستاذ "اصطيفان اكصيل" بدراسة علمية دقيقة لديانات البربر في العصور المتقدمة في كتابه الضخم "تاريخ شمال إفريقيا"، وبالرغم من بعض الأحكام السلبية في حق المغاربة التي حوتها هذه الدراسة، فهي ذات أهمية قصوى بالنسبة لموضوعنا. ومن أشهر العبادات الوثنية التي انتشرت في بلاد البربر قبل الإسلام عبادة الحيوانات، وعبادة الإنسان (الملوك أو رجال الدين)، والجن (الغول)، الشمس، والقمر، آمون (إله الكبش)، وآلهة البونيقيين، وآلهة اليونان والفينيقيين...،[4] ويشكل هذا التعدد الوثني أحد معاني قول يوليان لعقبة عن بربر الجنوب "لم يدخلوا في دين نصرانية ولا غيرها".

وقد انتشرت هذه الوثنيات المحلية والعالمية في الأماكن التي تمتع فيها البربر بنوع من الاستقلال السياسي والثقافي، والتي تقع جنوب المناطق الساحلية التي انحصر فيها الوجود المسيحي - البيزنطي. ويذكر المؤرخون عن ديانة هؤلاء البربر أنهم كانوا مجوسا،[5] غير أن الناظر في مفهوم المجوسية كما عرفها فقهاء "الملل والنحل"

---

[1] ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 6، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1/ 1992، ص. 126.

[2] André Chouraqui, Histoire des Juifs en Afrique du nord. T. 1. Du Rocher 1998. Hachette, p. 52.

[3] شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، م. س. ص. 78.

[4] اصطيفان اكصيل، تاريخ شمال إفريقيا، ج. 6، ترجمة محمد التازي سعود، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007، ص. 107- 148.

[5] ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 6، م. س. ص. 127. ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 1، م. س. ص. 24.

وغيرهم، والتي تقوم على ثنائية الأصلين النور والظلمة، لا يجد لها أثرا فيما انتهت إليه الدراسات التاريخية من معتقدات هؤلاء،[1] والراجح أن المقصود بها هو الوثنيات المحلية، ذلك أن الرواة الأوائل لم تكن معرفتهم بالأديان تتجاوز الديانتين السماويتين، وعبادة الأصنام، والمجوسية القائمة على ثنائية النور والظلمة،[2] وقد وظفوا هذا القاموس في وصف الحالة الدينية بالمغرب خلال الفتح، وعنهم نقل المتأخرون كابن خلدون وابن عذاري وغيرهما، وبالتالي فحديث المؤرخين عن المجوسية في هذا التاريخ المتقدم من تاريخ المغرب الأقصى هو حديث بالدرجة الأولى عن الوثنية.

وعموما، كان المغرب الأقصى عند مجيء العرب الفاتحين في بداية القرن 7م مقسما بين ثلاث ديانات رئيسية: المسيحية المحصورة في السواحل الشمالية حيث النفوذ البيزنطي؛ واليهودية في أنحاء متفرقة من البلاد؛ والوثنية التي سادت في عدد من مناطق الوسط والجنوب.

ب- اللغة:

استعمل بربر شمال إفريقيا في القديم وحتى زمان الفتح لغات وألسن متعددة، بعضها أصيل لم ينطق به أحد خارج هذه البلاد، والبعض الآخر وافد، دخل إفريقيا الشمالية صحبة المستعمرين الأول. ومن أبرز اللغات التي اقتسمت النفوذ بينها على المجال التداولي في بلاد البربر في هذا العهد: اللغة الأمازيغية، واللاتينية، والعبرية.

- **اللغة الأمازيغية:** تشكل الأمازيغية اللغة الأم للسكان الأصليين لإفريقيا الشمالية، وهي تنتسب للغة الليبية القديمة التي انتشرت في سائر بلاد البربر، ويعتبرها

[1] انظر على سبيل المثال صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، نشره الأب لويس اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912، ص. 17. اصطيفان اكصيل، تاريخ شمال إفريقيا، ج. 6، م. س. ص. 107 – 148.

[2] الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت، 233، 234.

الكثيرون إحدى لهجاتها،[1] ولا زال تاريخ الأمازيغية يلفه الغموض في كثير من الجوانب، وتغلب فيه الفرضيات على اليقينيات، بالرغم من البحوث الكثيرة المنجزة حولها في الفترة المعاصرة من طرف اللسانيين والمؤرخين، فعلى سبيل المثال لا زالت مسألة الكتابة والحرف، ومسألة الأصل مثار نقاش بين الباحثين إلى اليوم.

وبغض النظر عن هذه المسائل، كانت الأمازيغية في عموم بلاد البربر لغة التواصل الاجتماعي بين الناس، ولم ترق إلى لغة الدولة، حتى في عهد سيادة الممالك الأهلية، فسيفَكْس ومسنِيسّا ومن خلفوهما لم يستعملوا الأمازيغية في إدارة شؤون الدولة، واتخذوا بدلا عنها لغات وافدة كالبونيقية مثلا،[2] وهو ما جعل الحواضر والأمصار الأمازيغية مجالا لتداول لغات وافدة، أكثر من تداول الأمازيغية، ويظهر هذا الأمر بوضوح في المجالين الثقافي والسياسي. وخلافا لهذا اقتصر نفوذ الأمازيغية وتداولها على الأرياف والبوادي، التي شكلت عبر التاريخ مجالها الحيوي، وقد ساهمت النساء اللائي لا يخرجن عن عائلاتهن أو قراهن دورا حاسما في الحفاظ عليها في المجال الريفي، واستمرارها ونقلها إلى أبنائهن،[3] ويعزز هذا الرأي ما اكتشف من آثار ونقوش أمازيغية في الأرياف أكثر من تلك التي اكتشفت في المدن.[4]

وصفوة القول، كانت اللغة الأمازيغية في المغرب الأقصى عند إقبال الفاتحين لغة التواصل الاجتماعي الرئيسية بين البربر في الأرياف، ولم تشاركها لغة أخرى هذه الوظيفة مشاركة معتبرة، أما في المدن، فقد استبدت بشكل كبير اللغات الوافدة

[1] اكصيل، تاريخ شمال إفريقيا، م. س. ص. 83. ميلود التوري، الأمازيغية والفنيقية وبينهما العبرية واليونانية، مطبعة الرباط نت، ط. 1/ 2009، ص. 58. شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، م. س. ص. 78.

[2] اكصيل، تاريخ إفريقيا الشمالية، م. س. ص. 83.

[3] نفسه، ص. 84.

[4] محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، م. س. ص.34، 35.

وعلى رأسها البونيقية واللاتينية بوظائف اللغة المختلفة، وعلى رأسها الوظيفتين الثقافية والسياسية، ثم -كذلك- الوظيفة التواصلية.[1]

- اللغة اللاتينية: ارتبط انتشار اللغة اللاتينية في بلاد البربر بنفوذ الإمبراطورية الرومانية في هذه المناطق، حيث شكلت لغة المستعمر الأساسية على مستوى التواصل والإدارة، «فقد اضطرت الحياة الحضرية عددا كبيرا من البربر إلى تعلم اللغة اللاتينية المفروضة في المحاكم والمجالس البلدية والكتائب»،[2] وتعتبر الحواضر الرومانية المغربية كطنجة، ووليلي...، مراكز اللاتينية الأساسية في موريطانيا الطنجية (المغرب الأقصى) في هذا التاريخ. فقد عثر على نقوش عديدة في مناطق متفرقة من بلاد البربر، بلغ عددها في المغرب الأقصى حوالي 850 نقيشة، عثر على معظمها بوليلي،[3] وهي عبارة عن معاهدات سلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان خلال القرنين 2 و3 الميلاديين، وكتبت جل هذه النقوش باللغة اللاتينية، الشيء الذي يدل على نفوذ هذه اللغة، ومكانتها السياسية في هذه الحقبة من تاريخ المغرب.

وقد أدى رسوخ اللغة اللاتينية بين البربر في المغرب الأقصى إلى نبوغ عدد منهم في الثقافة اللاتينية، واستعمالهم اللاتينية في تعبيرهم الأدبي والديني، ومن أشهر المثقفين الأمازيغ الذين كتبوا باللاتينية "تيرنتيوس آفر" (Terentius Afer)، و"أبولاي" (Apulée) القديس، "أوغوستينوس" (Augustinus)...[4]

---

[1] يشير محمد شفيق في دراسته السالفة الذكر إلى ظهور لغة عامية في بعض الحواضر تجمع بين الفنيقية والأمازيغية، وفي السياق نفسه يشير إلى ظهور مجموعة من المثقفين الأمازيغيين الذين ألفوا باللغة اليونانية واللاتينية.. (محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغ، م. س، ص. 39، 40، 41).

[2] شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، م. س، ص. 248.

[3] مصطفى أعشي، نقاش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان في موريطانيا الطنجية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة نصوص ووثائق (2)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004، ص. 8.

[4] محمد شفيق، لمحمد عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، م. س، ص. 40- 42.

إن انتشار اللغة اللاتينية بين البربر في شمال إفريقيا يرجع بالدرجة الأولى إلى سياسة الإمبراطورية الرومانية التي كانت تهدف إلى رومنة الأهالي بوسائل مختلفة كالتعليم وغيره،[1] حيث تسابقت البلديات والأثرياء في فتح المدارس حتى في القرى؛ ومنح بعض الأهالي حق المواطنة الرومانية؛ وإرسال بعض أطفال البربر إلى روما، ليتربوا تربية لاتينية رومانية، وهو ما أدى مع مرور الوقت إلى تكون مجتمع لاتيني أمازيغي في عدد من الحواضر المورية (المغرب الأقصى)، ويظهر ذلك بقوة في أسماء عدد من البربر وألقابهم، بما فيهم الملوك كالملك يوبا، والملك الموري بوكود..،[2] حيث أمسى الكثير منهم يجمع بين الاسم المحلي واللقب اللاتيني.[3]

وإجمالا، بقيت اللغة اللاتينية مكونا رئيسيا في المشهد اللغوي المغربي حتى قدوم طلائع الفتح الإسلامي، خاصة في الحواضر الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

- **اللغة العبرية:** دخلت اللغة العبرية بلاد البربر في تاريخ متقدم يتأرجح بين القرنين 6 و3 ق. م، و«كانت لغة دين وطقوس وتعبد، وبهذه الصفة ارتبطت بالتعليم والمعرفة، ولم تكن لغة كلام دارج إلا في حدود ضيقة جدا، انحصرت بين الأحبار ومريديهم في سياق الدرس والتحصيل أو في التواصل مع يهودي أجنبي عن المغرب».[4]

إن المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي - انطلاقا من الحقائق التاريخية المذكورة أعلاه- لم يتميز بهوية خاصة، ذات صفات موحدة، بل اتسع لأكثر من توليفة هوياتية، اقتسمت النفوذ على المجال الجغرافي المغربي، ومن أبرزها: الهوية

[1] شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، م. س. ص. 248.

[2] اكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ج. 6، م. س. ص. 105، 105.

[3] تشير النقيشة 6 التي عثر عليها على قبر أحد أبناء الباكوات الأمازيغ في روما، ويظهر من اسم الأب المثبت في الشاهد أن أباه كان يتمتع بالمواطنة الرومانية. (مصطفى أعشي، نقاش معاهدات السلام...، م. س. ص. 9، 28، 29).

[4] ميلود التوري، الأمازيغية والفنيقية وبينهما العبرية واليونانية، م. س. ص. 108.

الأمازيغية- الوثنية، التي سادت مغرب الصحراء؛ والهوية اللاتينية- النصرانية، التي سادت المغرب المفتوح (الشمال)، وبشكل نسبي مغرب الوسط؛ والهوية العبرية- اليهودية، التي تخللت المغارب الثلاث.[1] غير أن هذا التمايز الهوياتي من الناحية المجالية، لم يكن دقيقا، وتاما، كما توحي بذلك الصياغة الصورية، بل كان هناك تداخل بين مختلف الأنساق الهوياتية، خاصة في مغرب الوسط، الذي شكل منطقة اتصال بين المغرب المفتوح ومغرب الصحراء.

2- ظهور التعليم العربي بالمغرب الأقصى وتطوره المجالي والنوعي:

لقد ارتبط ظهور التعليم العربي بالمغرب الأقصى بانتشار الدين الجديد ورسوخه في قلوب سكان هذا الإقليم، حيث كانت اللغة العربية هي لغة الإسلام الذي اعتنقوه طوعا. ويبدو من خلال مصادر هذه الحقبة - بالرغم بخلها- أن التعليم العربي تأخر بعض الوقت عن إسلام البربر، ولم يتزامن معه، كما أن المغرب الأدنى أو بلاد إفريقية بلفظ مؤرخي هذه الحقبة، استفادت من التعليم العربي قبل المغرب الأقصى (بلاد طنجة).

فمن أقدم الأخبار الموثوقة التي تتعلق بالتعليم العربي بالمغرب الأقصى، التي نعثر عليها بين أخبار الفتوح، ووراء غبار المعارك القاسية بين الفاتحين والبربر خبران متقاربان، الأول يشير إلى أمر والي إفريقية والمغرب موسى بن نصير للعرب الذين كانوا في جيشه وعددهم حوالي 12 ألفا بتعليم البربر القرآن وتفقيههم في الدين، وذلك أثناء غزوه لطنجة بعد توليه من طرف الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة 85هـ،

[1] يقسم العروي المغرب قبل دخول الإسلام إلى ثلاث مجالات المغرب المفتوح (السواحل المتوسطية) الذي كان محط الغزاة الأجانب منذ القدم وآخرهم البيزنطيون، ومغرب الوسط الذي كان يتأرجح بين السيطرة الأجنبية والممالك المحلية، ومغرب الصحراء الذي لجأ إليه البربر مطرودين أو فارين من الغزاة، واستنادا إليه حاولنا في هذه الدراسة التمييز بين ثلاث كيانات هوياتية (أمازيغية-وثنية، نصرانية -لاتينية، يهودية- عبرية). (عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج. 1، م. س. ص. 98- 107).

والخبر الثاني وقع في ظرف قريب من الأول، يشير إلى ترك موسى عددا من الرجال العرب صحبة البربر بطنجة للغرض نفسه، اختلف المؤرخون في تقديره بين سبعة عشر رجلا، وسبعة وعشرين رجلا.[1]

وقبل هذا التاريخ لا نعثر على أخبار ذات مصداقية تتعلق بممارسة تعليمية عربية في المغرب الأقصى، باستثناء ما ذكره أكثر من واحد عن ترك عقبة بن نافع لعدد من أصحابه بين البربر أثناء فتحه للمغرب، بهدف تلقينهم القرآن وشرائع الإسلام، غير أن هذا الخبر مشكوك في صحته من عدة وجوه، لعل أبرزها اضطراب خبر توغل عقبة بن نافع في المغرب الأقصى ووصوله إلى البحر المحيط، وكذلك الردّة المتكررة للبربر منذ البدايات الأولى للفتوح...، وحتى ولاية موسى بن نصير (85هـ).[2] أما الخبر الثاني فيتعلق ببعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين لبلاد المغرب حوالي سنة 100هـ، ليفقهوا أهل إفريقية ويعلموهم أمر دينهم،[3] غير أنهم فضلوا الاستقرار بالقيروان، ولم يتجاوزوها إلى أمصار النواحي الغربية، واكتفوا -عندما ثارت "الخوارج" على حنظلة بن صفوان[4] بطنجة حوالي 124هـ- ببعث رسالة من مقامهم بالقيروان باسمه إلى أهلها يذكرونهم بفحوى رسالة الإسلام، وقد أثبت المالكي نص هذه الرسالة في "رياض النفوس".[5]

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 1، م. س. ص. 42. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 1/ 1994، ص. 52.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب، م. س. ص. 42. عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج. 1، م. س. ص. 100، 101. ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بالرباط، ط. 1984/1، 51، 52.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 1، م. س. ص. 48.

[4] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، م. س. ص. 68، وابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ج. 1، ت. شارلز توري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة، ب. ت. ص. 298، ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 1، م. س. ص. 58، ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 6، م. س. ص. 129.

[5] عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس، تحقيق البشير البكوش، ج. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2/ 1994، ص. 102، 103.

وخلافا لحالة التأخر التي كان يعيشها المغرب الأقصى، فقد استفادت إفريقية مبكرا من التعليم العربي، الذي ارتبط بجهود الأسلمة، ومن الأدلة على ذلك ما ذكره عدد من المؤرخين من استقرار عدد من الصحابة بها واعتنائهم بتفقيه البربر وتلقينهم تعاليم الدين الجديد منذ منتصف القرن الأول الهجري،[1] بل الأهم من هذا كله في هذه الحقبة هو اتساع التعليم العربي ليشمل الغلمان والصغار، بعد ظهور الكتّاب في القيروان وذلك في حدود العقد السابع من القرن الأول الهجري.[2]

ومن ثم، تعتبر ولاية موسى بن نصير على إفريقية الممتدة من 85هـ إلى 96هـ، البداية الفعلية للتعليم العربي بالمغرب الأقصى، الذي ارتبط أساسا بتلقين العقيدة، والعبادات، وأحكام الدين الجديد، وسيزيد من رسوخ هذا التعليم واتساعه الصراع المذهبي والسياسي الذي دخله المغرب مبكرا في بداية المائة الثانية.

وإذا كان التعليم العربي على رأس المائة الأولى عاما، يهم سائر المسلمين الجدد وفي كافة النواحي، فإنه في الآن نفسه كان بسيطا ومحدودا، بحيث لم يتجاوز تلقين بعض سور القرآن الكريم للقيام بالصلاة، وبعض الأدعية، غير أنه سرعان ما سيتخذ طابعا ثقافيا، أكثر عمقا، وأبلغ تأثيرا على مستوى الهوية ابتداء من المائة الثانية، بعد ظهور بؤر تعريبية نشيطة في أكثر من جهة بالمغرب الأقصى، وقد وصف عدد من الجغرافيين القدامى، وأصحاب "المسالك والممالك" هذه البؤر، وأوردوا عددا من الأخبار الدالة على اتساع التعليم العربي بها، ومن أشهرها:

- نكور: التي أسسها أحد الفاتحين العرب على عهد الوليد بن عبد الملك، وهو سعيد بن إدريس ابن صالح بن منصور الحميري، وكانت في أولها رباط جهاد.[3]

[1] عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس، م. س. ص. 60- 98.

[2] عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس، م. س. ص. 91. أبو زيد عبد الرحمن الدباغ، معالم الإيمان، الناشر مكتبة الخانجي، مصر، ط، 2/ 1968.ص. 151.

[3] أبو عبيد البكري، المغرب في بلاد إفريقية والمغرب، منشورات دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ب. ت.ص. 91.

- سبتة: التي جاز منها طارق بن زياد إلى الأندلس، وكانت منذ الفتح العربي مركزا علميا مزدهرا، وساعدها على ذلك قربها من الأندلس التي كانت وتيرة التعريب بها أقوى وأكثر فعالية، ويقال عن أحد رجالاتها، وهو أبي زرعة أنه أول من أدخل القرآن إلى المغرب.[1]

- البصرة: تقع هذه المدينة قرب مدينة القصر الكبير بشمال المغرب، سبق إليها التعليم العربي، وكان أهلها شغوفين بالعلم، قال عنها ابن حوقل: «وفيها قوم لهم ميل إلى السلامة والعلم».[2]

- سلا: كانت هذه المدينة رباطا من رباطات الجهاد ضد البرغواطيين، يفد إليها المجاهدون من آفاق مغربية مختلفة، وانسجاما مع هذا الدور، فقد احتضنت الدعاة وفسحت لهم المجال للتوعية والتعليم.[3]

- فاس: تحولت فاس بعد تأسيسها إلى منارة من منارات التعليم العربي في شمال المغرب، بسبب جامع القرويين الذي تأسس بها.[4]

- سجلماسة: كانت هذه المدينة قاعدة من قواعد التعليم العربي في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى، قال عنها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري وأهلها «يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر، مع علم وستر وصيانة».[5]

- أغمات: كانت مدينة عامرة بعد الفتح الإسلامي، ومستقر المرابطين الذي يجاهدون برغواطة، كانت بها سوق علمية نافقة، ويدل على ذلك انتشار المساجد بها،

---

[1] نفسه، ص. 103. محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط. 3/ 1996، ص. 13.

[2] ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط. 1992/1، ص. 81.

[3] نفسه، ص. 82.

[4] عبد الهادي التازي، جامع القرويين، ج. 1، دار نشر المعرفة، الرباط، ط. 2/ 2000، ص. 111- 115.

[5] ابن حوقل، صورة الأرض، م. س. ص. 96، البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ط. 2/ 1902، ص. 239. ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س. ص. 98.

وكثرة العلماء والمدرسين بها،[1] وبجوارها كان رباط شاكر المنسوب لأحد أصحاب عقبة بن نافع الذي ساهم بدوره في التعريب.[2]

وبالتالي، ونتيجة لرسوخ التعليم العربي بهذه الأمصار، ظهرت نخبة ثقافية عربية "صلبة"، تكونت من مجموعة من الفقهاء والأدباء، تجاوز صيت بعضهم حدود المغرب الأقصى، ولا زالت مصنفات التراجم تحتفظ لنا بعدد من تراجم هؤلاء، ولمع من أخبارهم. ومن أشهر من اعتنى بهذه النخبة من المعاصرين، وبدافع قومي - وطني، الشيخ العلامة عبد الله كنون في كتابه الشهير "النبوغ المغربي"، اعتمادا على مجموعة من المصادر، فقد ترجم لعدد منهم، وعلى رأسهم في مجال الفقه: دراس ابن إسماعيل (ت. 357هـ)، الذي أدخل المذهب المالكي للمغرب، وأبو جيدة بن أحمد (ت. 365هـ)، من أشهر فقهاء فاس، ومن كبار أهل العلم بها في هذا الزمان،[3] وعيسى بن حيون، فقيه وقاضي الأدارسة بمدينة أرشقول بشرق المغرب، والمندثرة حاليا، وهو من أعلام القرن الرابع،[4] وأبو هارون العمري وهو فقيه لامع من بصرة المغرب، توفي قريبا من منتصف القرن الرابع الهجري، وصديقاه أحمد بن حذافة، وبشار بن بركانة..،[5] أما في مجال الأدب فتدل الشواهد التاريخية التي وصلتنا على تداوله الواسع نسبيا في بلاد المغرب، وقد ذكر ابن عذاري وغيره قطعا عديدة من قصائد ترجع لمغاربة عاصروا هذه الحقبة.[6] وهي - في عمومها- مجرد أمثلة، الغرض

---

[1] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س. ص. 92، 106، 161.

[2] أبو علي صالح، كتاب القبلة، مخطوط، ضمن مجموع، رقم، 985 ق. ص. 14، 15. ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س. الهامش، 24، ص. 89.

[3] عبد الله كنون، النبوغ المغربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. 2/ 1961، ص. 49 - 52.

[4] ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، القسم الأول من السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984، ص. 245.

[5] القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج. 5، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط. 2/ 1982، ص. 148، 149.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 1، م. س. ص. 178، 179، 183، 226، 236. عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص. 54.

منها الإشارة إلى ظروف تخلق جنين الثقافة العربية بالمغرب الأقصى في حدود المائة الرابعة.

أما بعد انصراف القرن الرابع الهجري، وإلى نهاية العصر الوسيط (العصر المريني) فقد شهد التعليم العربي تطورات مجالية ونوعية مهمة، يرجع الفضل في اكتشافها إلى مصادر هذه الحقبة الوفيرة نسبيا مقارنة بالقرون التالية للفتح، ولعل أبرز مثال دال عن هذا التطور ما ذكره بعض القدامى عن فاس بين القرنين الرابع والسادس، فأهله في المائة الرابعة كان «فيهم ثقل وغباء، قليل العلماء وكثير الغوغاء»[1] لكن مع حلول المائة السادسة، وبسبب انتشار التعليم أمسوا «ظرفاء أدباء، وأكثرهم فقهاء».[2]

- على المستوى المجالي: اتسع نطاق التعليم العربي بعد المائة الرابعة، بالتوازي مع انتشار التعليم الديني، وانضافت إلى المراكز التعليمية الأولى مراكز أخرى جديدة، همت أنحاء مختلفة من المغرب الأقصى، ومن أبرز هذه المراكز حسب إشارات الجغرافيين والمؤرخين: دار المرابطين "بملكوس" أو نفيس في سوس الأقصى، التي كان يديرها الشيخ وجاج بن زلو اللمطي؛[3] ومركز تمل في جبال درن (الأطلس الكبير)، الذي أسسه محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية؛ ومركز القرويين بفاس، الذي زاد نشاطه بشكل ملحوظ ابتداء من العصر المرابطي؛ ومراكز أخرى عديدة فاقت الخمسة عشر، انتشرت بصفة خاصة في مناطق الوسط والساحل الأطلسي، وقد ذكر ابن الزيات التادلي في التشوف طرفا منها في المائة السادسة.[4] وقد

[1] البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، م. س. ص. 230.

[2] أبو عبد الله الزهري، كتاب الجغرافية، ت. محمد حاج صادق، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ب. ت. ص. 114.

[3] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س. ص. 89. ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 4، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط. 2/ 1984، ص. 8.

[4] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س. ص. 513، 514.

تعزز دور هذه المراكز، سواء تلك التي تأسست قبل المائة الرابعة أو بعدها بشبكة واسعة من الكتاتيب القرآنية، غطت معظم المعمور من بلاد المغرب الأقصى، بما في ذلك القرى.[1]

- على المستوى النوعي: شهد استعمال اللغة العربية في المجال التعليمي في المغرب الأقصى تطورات نوعية مهمة بعد المائة الثالثة، تجسدت في تحولها من "لغة دين"، يقتصر استعمالها على الفرائض الشرعية والممارسات التعبدية، إلى "لغة علم"، تشكل وعاء الفكر المغربي في أبعاده الدينية والأدبية والعقلية، وانسجاما مع هذا التحول اتسع نطاق استعمالها، ولم تعد محصورة في الكتاتيب، والمساجد كدور للعبادة، وتعدتها إلى الرباطات والمدارس.

ففي أواخر القرن الأول الهجري كانت اللغة العربية لغة دينية محضة، شديدة الصلة بالحاجات الدينية للمسلمين الجدد، وتدل على ذلك طريقة المغاربة في تلقين القرآن وتحفيظه، والتي لا زالت متبعة إلى اليوم في الكتاتيب القرآنية المغربية، وتعطي هذه الطريقة الأولوية للحفظ على تعليم اللغة، وهي - للإشارة- مخالفة لطريقة القيروانيين والأندلسيين من بعض الجوانب،[2] فعلى رأس المائة الأولى وفي بداية الثانية، لم تكن حاجة بربر المغرب إلى اللغة العربية تتجاوز الحاجة إلى حفظ بضع آيات من الكتاب الحكيم، تسعفهم في القيام بفرائضهم الدينية، خاصة بالنسبة للراشدين.

لكن بعد مدة من استقرار الإسلام في كيان المجتمع البربري حصلت نقلة نوعية في وظيفة اللغة العربية في المجال المغربي، حيث أمست لغة "علم" وثقافة. وإن كنا لا نستطيع تحديد تاريخ هذه النقلة بالدقة المطلوبة بسبب شح المعلومات، وثغرات

[1] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س. ص. 125، 181، 184.

[2] ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. 1/ 1992، ص. 623.

المصادر، غير أن الراجح لدينا أنها تمت في حدود المائة الرابعة، وذلك اعتمادا على بعض الأخبار والآثار.[1]

لقد كان "العلم" في السياق التداولي والثقافي الجديد الذي عرفه المغرب بعد الفتح يعني بالدرجة الأولى مجموعة من السماعات والروايات المتصلة بالنبي (ص) وكبار الصحابة، وتتعلق بفقهيات مختلفة مرتبطة بنصوص من القرآن والسيرة والحديث (عقائد، أحكام، عبادات)، فلفظ الفقيه أو العالم في هذا الطور من تاريخ المغرب كان مجرد وصف لشخص تميز بحفظ القرآن وبعض الأسانيد، ولا زال إلى اليوم في المغرب الأقصى حافظ القرآن، ومعلمه، والقائم بالصلوات الخمس في المساجد في اصطلاح العامة يسمى الفقيه.[2] والمغرب الأقصى في هذا الباب كان عالة على الشرق، ومشدود إليه، وبالتالي كان أهله دائما في حال انتظار قدوم هذا النوع من "العلم" إليهم، أو ينتقل ذووا الهمم من أبنائه إلى أعشاشه في المدينة والبصرة والكوفة، وقد سبب له هذا الوضع -إلى جانب أشياء أخرى- تأخرا علميا ملموسا عن البلاد الشرقية.

وبالرغم من ضحالة معارفنا عن "علماء" المغرب وآثارهم العلمية، في هذه الفترة المبكرة، فإننا نعتقد بوجود طبقة معتبرة منهم، تولت مسئولية التأطير الديني للمغاربة، ومن أبرز الأعلام المنتسبة لهذه الفترة: «أبو القاسم سمغو بن واسول المكناسي الصفري، مقدم الصفرية بالمغرب، لقي عكرمة (ت. 105هـ) مولى عبد الله بن

[1] يقول صاعد الأندلسي في كتاب الطبقات: «أنه لما كان وسط المائة الثالثة من تاريخ الهجرة، وذلك في أيام الأمير الخامس من ملوك بني أمية وهو محمد بن عبد الرحمن .. تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم»، وبالتالي إذا كانت الأندلس تحركت لطلب العلوم في المائة الثالثة فمن المرجح أن يكون المغرب تحرك بعدها بقليل أي في حدود المائة الرابعة نظرا للظروف الخاصة التي مر بها المغرب مقارنة بالأندلس. (صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، نشره الأب لويس اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912، ص. 64).

[2] حول ظهور العلم في المجال الإسلامي انظر: ابن خلدون، المقدمة، م. س. ص. 628، 629.

عباس رضي الله عنه، وحدث عنه، ثم اجتمعت عليه الصفرية بالمغرب وقدموه»»،[1] وكانت وفاته -حسب تقديرنا- في منتصف المائة الثانية؛ أبو حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي من رؤساء البربر، كان حيا في المائة الثانية؛[2] الإمام يحيي الأول (ت. 249هـ)؛ والإمام يحيي الرابع (ت. 307هـ).[3]

ومهما يكن، فابتداء من القرن الرابع الهجري نستطيع تمييز مجموعة من الأسانيد العلمية والسماعات المغربية التي نقلها عدد من الرواد إلى أمصار المغرب الأقصى، والتي ستشكل فيما بعد أساس العلم في بلاد البربر، ومن أولى هذه الأسانيد والسماعات وأشهرها سند دراس ابن إسماعيل (ت. 357هـ)،[4] الذي أدخل المذهب المالكي إلى المغرب بنقله مدونة سحنون في الفقه المالكي إلى فاس،[5] وسند أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي (ت. 372هـ) الذي تميز برواية البخاري.[6]

وبالموازاة مع انتقال سند العلوم إلى المغرب الأقصى بعد المائة الرابعة ظهرت مجموعة من المؤلفات والكتب في فنون شتى، وتعتبر هذه المؤلفات هي الأولى من نوعها في المغرب الأقصى في حدود علمنا، ومن أشهرها في العصر المرابطي (بين المائة 5 و6هـ): "الإعلام بحدود قواعد الإسلام"، و"الشفا في التعريف بحقوق المصطفى"، و"ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك" للقاضي عياض،

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط، ط. 1/ 2005، ص. 140.

[2] نفسه، ص. 141.

[3] عبد الهادي التازي، جامع القرويين، ج. 1، م. س. ص. 111، 112.

[4] القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج. 6، تحقيق سعيد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط. 1/ 1981، ص. 81- 84. محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ. ص. 103.

[5] المدونة في أصلها مجموع سماعات سحنون عن تلميذ الإمام مالك عبد الرحمن ابن القاسم في مصر، والتي أصبحت منذ تأليفها بالنسبة للمغاربة دليلا من أدلة المذهب المالكي بعد الموطأ، وفي بعض الحالات اكتفوا بها.

[6] عبد الله كنون، النبوغ المغربي، م. س. ص. 51.

و"ديوان خطب" لمروان بن سمجون...،[1] وبرسوخ الممارسة العلمية- العربية في المغرب الأقصى سيزداد حجم هذه المؤلفات وسيتنوع. وبصرف النظر عن قيمة ما صنفه المغاربة في هذه الحقبة، وأصالته العلمية، فإنه -من زاوية موضوعنا- يدل على الدور الذي باتت تضطلع به اللغة العربية في الحياة العلمية والثقافية للمغرب الأقصى.

غير أن أقوى الأدلة على تحول اللغة العربية إلى لغة العلم في هذا الطور من تاريخ المغرب الأقصى هو معرفة أهل الديانات الأخرى بها وخاصة اليهود، وإتقانهم لها، واعتمادها في تقييد أبحاثهم العلمية، سواء منها الدينية أو الدنيوية، ويحكي ابن رشيق الأندلسي في أواخر المائة السابعة،[2] أنه ناظر قسيسا في مدينة مرسية بالأندلس من بلاد مراكش، «فصيح اللسان مدرك للكلام»،[3] كما حفظت لنا المصادر التاريخية عددا من التراجم التي يستشف منها تقدم أتباع الديانات الأخرى في العربية، من ذلك مثلا: «إسحاق بن يعقوب الكوهن الملقب بالفاسي، الذي ولد في قلعة ابن أحمد قرب فاس، وتوفي باليسانة عام 497هـ/ 1103م، وهو صاحب "شرح التلموذ" في عشرين مجلدا بالعربية، وجامع ثلاثمائة وعشرين فتوى بالعربية حول التشريع التلموذي»؛[4] وأبو الحجاج يوسف بن يحيى الإسرائيلي الفاسي المغربي (ت. 623هـ) الذي انتهى به المقام بمصر.[5]

ومن جهة أخرى، واستكمالا لصرح هذه التحولات النوعية من الناحية المؤسساتية، فقد انتشرت في المغرب خلال هذه الفترة الرباطات، والمدارس العلمية،

---

1 نفسه، ص. 95.

2 محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط. 2/ 1977. ص. 71.

3 الونشريسي، المعيار، ج. 11، تحقيق محمد حجي وجماعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1/ 1983، ص. 155.

4 عبد العزيز بن عبد الله، الفكر الإسلامي وأثره في فلسفة موسى ابن ميمون وتطور التقاليد اليهودية، ص. 109، ضمن أعمال ندوة أكاديمية المملكة المغربية حول "حلقة وصل بين الشرق والغرب: أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون، مطبوعات الأكاديمية، ج. 12، 1985، (ص. 107- 125).

5 محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، م. س. ص. 124.

التي تجاوزت مهمتها تخريج العُبَّاد، إلى تخريج العلماء. ومن أقدم الرباطات المغربية التي وصلنا خبرها رباط شاكر الكائن بناحية مراكش، الذي تأسس -حسب تقديرنا- في أواخر المائة الثانية للهجرة، حسب ما يفيد السياق التاريخي، فأول ذكر لهذا الرباط، كان على هامش خبر برغواطة الذين عمروا المناطق الممتدة بين الرباط ومراكش، وكان رباط شاكر محشر المجاهدين المتربصين بكفار برغواطة، ومنطلق الدعاة الداخلين إليهم، بالإضافة إلى قيامه بالوظيفة التعليمية، ولا أدل على ذلك استقرار عدد من تلامذة ابن أبي زيد القيرواني به في أواخر القرن الرابع الهجري.[1]

ومن الرباطات القديمة الأخرى التي ظهرت في تاريخ قريب من هذا العهد، رباط "دار المرابطين"، الذي أسسه وتولاه الفقيه وجاج بن زلو اللمطي في سوس الأقصى، ولا يعلم تاريخ محدد لتأسيسه، ويرجح أنه تم ما بين نهاية القرن الرابع وبداية الخامس، وبالمقاربة مع رباط شاكر، فإن الوظيفة العلمية لدار المرابطين أوضح، فقد ذكر ابن الزيات أن هذه الدار كانت لطلبة العلم وقراءة القرآن، كما أن معلم المرابطين عبد الله بن ياسين تخرج من هذا الرباط، وهو تلميذ الفقيه وجاج.[2]

ومن الرباطات الشهيرة الأخرى في المغرب الأقصى، والتي اضطلعت بأدوار علمية وجهادية في القرن الرابع الهجري رباط سلا، الذي كان يجتمع فيه «من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة»،[3] وبالرغم من غلبة الغرض الجهادي على هذا الرباط بحكم موقعه، وظروف تأسيسه، فإن هذا الغرض لا يتم بدون تعليم وتلقين، وقد شكل هذا التجمع

[1] حول هذا الرباط انظر: أبو علي صالح، كتاب القبلة، مخطوط، م. س. ص. 14، 15، وأحمد التوفيق في الهامش 34 من كتاب التشوف إلى رجال التصوف (ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س. ص. 51).

[2] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س. ص. 89. ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 4، م. س. ص. 8.

[3] ابن حوقل، صورة الأرض، م. س. ص. 82.

وانقطاع النازلين به عن الدنيا فرصة مناسبة لقادة رباط سلا الدينيين والعسكريين للقيام بمهام التربية والتعليم.

أما المدارس فقد ظهرت متأخرة بعض الشيء عن الرباطات، وأقدم الأخبار التي تذكرها ترجع إلى العصرين المرابطي والموحدي، فقد أسس كل من أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين عددا من المدارس في سبتة وطنجة وفاس ومراكش، أنتجت مدرسين كبار سابقوا علماء قرطبة واشبيلية وغرناطة حسب العلامة المؤرخ المنوني، ومن أشهر هذه المدارس: مدرسة الصابرين بفاس التي تأسست بأمر المرابطين، ومدرسة الموظفين بمراكش التي أسسها عبد المومن بن علي (ت. 558هـ) من أجل تخريج الأطر الإدارية للدولة الموحدية، والمدرسة الملكية لتعليم الأمراء الموحدين، ومدرسة تعليم فن الملاحة بالرباط...،[1] وإلى جانب المدارس "العمومية" ظهرت بعض المدارس "الخاصة" التي أسسها خواص الناس، ولعل أبرز مثال لها مدرسة علي الشاري (ت. 649هـ) بسبتة.[2]

وعموما، يعتبر العصر الموحدي بما تضمنه من وحدات مدرسية مجرد مقدمة للعصر الذي تلاه، وهو العصر المريني، الذي عرف انتشارا واسعا للمدارس، ففي زمان المرينيين كثرت المدارس في المغرب الأقصى، ونشأت مؤسساتها في معظم المدن الرئيسية، واستقرت برامجها ووجهتها مقارنة مع العصر السابق، وكانت جل هذه المدارس تستعمل اللغة العربية في التدريس، ولا تقبل من بين طلبتها من لا يتقن اللغة العربية كتابة ونطقا، وكانت المواد التي تدرس بها لا تخرج عن ثلاث مواد رئيسية: الفقه، والنحو، والقراءات.[3]

---

[1] مجهول، الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 1/ 1979، ص. 150، 151. محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، مطبوعات دار المغرب، الرباط، 1977، ص. 20 -24. عبد الهادي التازي، جامع القرويين، ج. 1، م. س. ص. 121، 122.

[2] محمد بن القاسم الأنصاري، اختصار الأخبار، م. س. ص. 27.

[3] محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، م. س. ص. 254- 256.

وإجمالا، دخلت اللغة العربية إلى المغرب الأقصى أول ما ظهرت صحبة الفاتحين الأوائل، وكان دورها ديني صرف، انحصر في تلقين المسلمين الجدد مستلزمات العبادة، وعلى رأسها بضع آيات من الذكر الحكيم، وقد تكفل بهذه المهمة في العهد الأول عدد من الدعاة العرب الطارئين على بلاد البربر، وارتبط نطاق هذا النوع من التعليم بجغرافية الفتح، ورسوخ مبادئه في المناطق المفتوحة. لكن بعد مرور قرابة قرنين من الزمان عن الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى، وتحديدا في مطلع القرن الرابع الهجري حصل تطور نوعي بالغ الأهمية في تعاطي المغاربة مع اللغة العربية، حيث أمست لغة العلم والثقافة، ووعاء الفكر المغربي في العصر الإسلامي، وتزامن هذا التطور مع ظهور "العلم" في المغرب الأقصى، واجتهاد طائفة من الناس في طلبه بالرحلة إلى أمصاره، والجلوس إلى رجاله، وابتداء من هذا التاريخ أخذت الأعلام المغربية تظهر في معاجم المؤلفين ومصنفات التراجم. ومن الناحية المؤسساتية أفضى هذا التطور إلى اتساع بنيات التعليم العربي، التي كانت مقتصرة على الكتّاتيب والجوامع، وظهرت إلى جانبها الرباطات والمدارس.

3- مقاومة الأمازيغية لنفوذ العربية أو محاولات تمزيغ الإسلام:

من القضايا الأساسية التي تتفرع عن إشكالية لغة التعليم والهوية في المغرب الأقصى من منظور تاريخي قضية علاقة اللغة العربية باللغة الأمازيغية، ولعل السؤال المفتاح لمعالجة هذه القضية وتحليلها تحليلا تاريخيا معقولا: هل سلّمت الأمازيغية بسهولة للغة العربية بالتعبير عن الإسلام والعلم، وأخلت لها الساحة حتى تكون لسانهما المبين في المغرب الأقصى؟.

إن التمعن الهادئ في التفاصيل والأحداث التاريخية التي لها صلة بعلاقة اللغتين العربية والأمازيغية في المغرب الأقصى، يظهر قدرا كبيرا من المقاومة التي أبدتها اللغة الأمازيغية للنفوذ الديني والثقافي للغة العربية، وهو ما لم ينتبه له معظم الدارسين، الذين حكموا على الأمازيغية بالسلبية اتجاه العربية. وتجلت هذه المقاومة بشكل رئيسي على هامش بعض الأحداث التاريخية الكبرى في تاريخ المغرب الأقصى والتي اعتاد المؤرخون وغيرهم المرور عليها مرور الكرام، دون أن ينتبهوا إلى دلالاتها الإستراتيجية، التي تتعلق بإشكالية اللغة والدين في المجال المغربي، والتي لا تتجلى في ظاهر النص. ومن أهم هذه الأحداث: ظهور الديانة البرغواطية، وديانة حاميم الغماري.

فمن الأشياء الدالة التي لفتت انتباهنا أثناء مراجعتنا لحادثتي ظهور هاتين الديانتين تشابههما الكبير في عدد من الأفكار من جهة، ومحاكاتهما الواضحة للديانة الإسلامية، فكلاهما صدقا بما جاء به القرآن، والتزما التوحيد، ووضعا لأتباعهما شرائع متشابهة أحيانا، ومتطابقة أحيانا أخرى مع ما جاء به الإسلام، من صلاة، وصوم، وقرآن، غير أن أئمة هاتين الديانتين حاولا تقديم تعالمهما بلغة البربر.

فصالح البرغواطي أمازيغي، يفهم غير لسان من ألسنة البربر، «عمل لهم كلاما رتله بلغتهم وشرع فيه محابّه على نحلتهم فهم يتدارسونه ويعظمونه ويصلون به»،[1] ويقول ابن حوقل الذي ألف كتابه في عهدهم: «وفيهم الآن من يقرأ القرآن بغاية الاحترام، ويحفظ منه السور، ويتأول آياته على موافقته لكتابهم وقرآنهم»،[2] وبالتالي فالتقاطعات الكبيرة والواضحة بين إسلام المغرب الأقصى في القرن الثاني الهجري، والنحلة البرغواطية كما شرحها المؤرخون الأول، والتسامح والقبول الذي تعامل به أتباعها مع الإسلام، تدل دلالة واضحة على أن البرغواطية ما هي إلا صيغة أمازيغية للإسلام، ويعزز هذا الاستنتاج ما ذكره البكري عن مشاركة صالح وأبوه في ثورة ميسرة الحقير سنة 122هـ،[3] كما أن أهم المصادر التي ساقت لنا خبر برغواطة ألفها عرب، منعهم جهلهم بالأمازيغية من التعرف على حقيقة البرغواطية، وعنهم نقل المغاربة، وبالرغم من هذا العيب فإن ما نقلوه يعضد فرضيتنا كون البرغواطية مجرد ترجمة أمازيغية للإسلام العربي.

أما حاميم الغماري (ت. 315هـ)، الذي ادعى النبوة، حسب الإسطوغرافيا العربية، فهو الآخر أمازيغي الأصل، من جبال غمارة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وضع لأتباعه قرآنا بلسانهم الذي يفهمونه، ترجم البكري جملا منه، وفرض عليهم مجموعة من الفرائض تشبه ما جاءت به شريعة الإسلام كصيام سبعة وعشرون يوما من رمضان، وزكاة العشر، والصلاة، مع اختلاف في القدر والطريقة...، وأسماء أبنائه كلها عربية إسلامية، فكان له من الولد محمد وعبد الله وعيسى.[4]

---

[1] ابن حوقل، صورة الأرض، م. س. ص. 82.

[2] نفسه، ص. 83.

[3] نفسه، ص. 82، 83. ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 1، م. س. ص. 56- 57. البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، م. س. ص. 134، 135. ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 6، م. س. ص. 245- 249.

[4] أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، م. س. ص. 100، 101. ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 6، م. س. ص. 254- 256.

وبالتالي، واستنادا إلى هذه التقاطعات الظاهرة بين الإسلام ونحلة حاميم، يمكن القول -أيضا- أن بدعة هذا الأخير ما هي إلا نسخة أخرى أمازيغية للديانة الإسلامية في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية الرابع.

فانطلاقا من هذين المثالين، يبدو أن كلا من نحلة برغواطة، و"نبوءة" حاميم، هي قراءة أمازيغية للإسلام في هذا الظرف، ذلك أن دعاة هاتين النحليتين لم يرفضوا العقيدة الإسلامية في أبعادها التوحيدية، ولم يشككوا في صدق رسالة محمد (ص)، كما تؤكد ذلك الأخبار التي وصلتنا عنهم، ولكنهم تمثلوا الرسالة المحمدية بلغتهم المحلية، ووفق معطيات بيئتهم الثقافية.[1] وهذا الموقف من الأمازيغ في هاتين الناحيتين من المغرب الأقصى لم يكن موقفا مدروسا، واختيارا واعيا، بل نتيجة منطقية وتاريخية لفتور الدعوة الإسلامية في المغرب الأقصى جملة ابتداء من المائة الثانية، وانقطاعها تماما عن المناطق التي ظهرت بها هاتين البدعتين (غمارة وتامسنا)، فبعد الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى (86هـ) بمدة قصيرة اندلعت ثورة البربر (122هـ)، التي أخرجت المغرب من دار الخلافة الأموية، الشيء الذي لم يتح للإسلام الصحيح فرصة التغلغل في أحشاء بلاد البربر الحديثة العهد بالجاهلية.

وصفوة القول، إن البربر في بعض مجالات المغرب الأقصى حاولوا أن يجعلوا من الأمازيغية لغة الإسلام، وقاموا بترجمة معاني القرآن إلى لغتهم، والصلاة بها، ولا أدل على ذلك النصوص التي احتفظ بها المؤرخون الذين نقلوا خبر الديانتين، غير أن

---

[1] لقد حار المؤرخون في وصف وتجنيس الديانة البرغواطية فنهم من ربطها بالخوارج ومنهم من ربطها بالآثار المسيحية واليهودية...، والواقع أنها إسلام بلغة البربر، إسلام القرن الثاني الهجري في المغرب الأقصى حيث فتور الدعوة، وضعف الصلة بالمصادر الأصلية للإسلام بالمشرق. (أحمد الطاهري، المغرب الأقصى ومملكة بني طريف الرغواطية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1/ 2005. محمد الطالبي وإبراهيم العبيدي، الرغواطيون في المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1/ 1999. امحمد جبرون، الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن 5هـ منشورات دار أبي رقراق، ط. 1/ 2008، 179. G. Marcy, Le dieux des Abadites et de (Bargwâta, Hespéris, T. XXII, 1953, p.p. 3- 56.

هذه المحاولة باءت بالفشل بسبب معارضة الفقهاء العرب ومن والاهم من البربر، وتم القضاء عليها عسكريا.

وهكذا استطاعت اللغة العربية احتكار الوظيفة الدينية بشكل تام في المغرب الأقصى، بعد القضاء على محاولات تمزيغ الإسلام، وذلك مع حلول القرن الخامس الهجري، ونتيجة لذلك استقلت -أيضا- بالوظيفة الثقافية منذ أن ظهر العلم بالمغرب الأقصى، حيث أمست لغة العلوم الشرعية والأدبية والعقلية.

ومن الظواهر الأخرى ذات الصلة بعلاقة العربية بالأمازيغية في المجال المغربي خلال العصر الوسيط، إقدام مهدي الموحدين محمد بن تومرت على تأليف كتاب التوحيد لجمهور الموحدين من البربر باللسان البربري، وترجم معه طائفة أخرى من تعاليمه الدينية إلى الأمازيغية، وقلده في ذلك مع شيء من المبالغة خليفته عبد المومن بن علي، وكان الهدف من هذه الخطوة هو إعادة بناء معاني التوحيد لدى المسلمين الأمازيغ، وتلقينهم مبادئ التدين الصحيح.[1]

لقد استقبلت هذه الخطوة -التي أقدم عليها الموحدون- بإيجابية من طرف المغاربة بمختلف طبقاتهم، ولا نعلم أحدا استنكرها من المتقدمين والمتأخرين، كما ساهمت بشكل فعال في ترسيخ الإسلام في بلاد البربر، وخاصة في جبال درن (الأطلس الكبير)، وسوس، ولعل السبب الرئيسي وراء هذا الموقف الإيجابي هو سلامة المشروع الموحدي من الآفات التي وقعت فيها المشاريع السابقة، ففي التجربتين السابقتين البرغواطية والغمارية كانت الغاية – سواء أدركت أم لم تدرك- تمزيغ الإسلام، وابتداع إسلام أمازيغي قرآنا وسنة، أما في التجربة الموحدية فالأمر لا يتعدى الرغبة في تمزيغ التدين أي جعل الأمازيغ يمارسون الإسلام بشكل صحيح.

---

[1] مجهول، الحلل الموشية، م. س. ص. 109، 110. محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، م. س. ص. 27، 28. ليفي بروفنصال، مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، 1941، ص. 131، 132.

ومن ثم، استطاع التفاعل التاريخي بين العربية والأمازيغية في المغرب الأقصى وعلى مدى خمسة قرون تقريبا، وحتى العهد الموحدي، بلوغ نوع من التوازن الوظيفي، سمح للمغرب الأقصى بالنمو الديني والثقافي والحضاري، فاللغة العربية استقلت بالوظيفة الدينية باعتبارها لغة القرآن والسنة النبوية، وبناء عليها استقلت بالوظيفة العلمية، أما اللغة الأمازيغية فقد أجهض طموحها المبكر لتكون لغة الدين، وأنكر سعيها لتكون لغة الرسالة، وبالمقابل اعترف لها بالنفوذ في المجال التربوي.

4- تأثير اللغة العربية على هوية المغرب الأقصى:

كان المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي موزعا بين ثلاث أقاليم هوياتية: الهوية الأمازيغية- الوثنية، التي سادت مغرب الصحراء؛ والهوية اللاتينية- النصرانية، التي سادت المغرب المفتوح (الشمال)، وبشكل نسبي مغرب الوسط؛ والهوية العبرية- اليهودية، التي تخللت المغارب الثلاث، وكما هو واضح من خلال هذه التسميات كان لكل واحد من هذه الكيانات الهوياتية لغته الخاصة. ويعكس هذا الانقسام تأثيرات ثقافية وحضارية متباينة، بعضها آت من الشمال، والبعض الآخر وافد من الجنوب والشرق. ولم تكن التجزئة الهوياتية في المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي مجرد تجزئة دينية وثقافية، بل تعدتهما إلى المجال السياسي، حيث كان لكل هوية انحياز سياسي واضح، فالمغرب المفتوح خضع للهيمنة البيزنطية، ومغرب الصحراء خضع للحركات الاستقلالية الأمازيغية (القبلية)، بينما مغرب الوسط كان يتأرجح بين القوتين الأمازيغية والنصرانية.

لكن دخول الإسلام إلى المنطقة غير من الدينامية التاريخية بشمال إفريقيا، وخلخل الاستقرار الهوياتي القائم على التجزئة، والذي عاشت في ظله المنطقة لقرون، فاعتناق البربر الإسلام في أواخر المائة الأولى للهجرة، والتحاقهم بتاريخه، غير الكثير من عوامل معادلة الهوية في المغرب الأقصى، وعلى رأس هذه العوامل: الدين واللغة.

إن إسلام المغاربة أدى إلى قلب جذري في معادلة الهوية الدينية، حيث تمت إزاحة الوثنية والمسيحية من المجال المغربي بصفة شبه كلية، وتم تعويضهما بالإسلام. ومن الحاجات الثقافية المستجدة في هذا الظرف التاريخي، والتي واكبت الفتح الإسلامي الحاجة إلى التعليم الإسلامي، فالمسلمون الجدد كانوا بحاجة إلى بلاغ وبيان، حتى يتشبعوا بمعاني الإيمان، ويخرجوا من نفق الجاهلية إلى رحابة الإسلام، ومن ثم فقد ظهر في المغرب الأقصى مجموعة من الدعاة والمعلمين، ونشأت مجموعة من المجالس والكتاتيب التعليمية.

ففي هذا السياق دخلت اللغة العربية إلى المجال الثقافي المغربي باعتبارها لغة القرآن والدين الجديد، واتسع استعمالها باتساع دائرة الإسلام. ورسخت مكانة العربية كلغة دين، بعدما تم القضاء النهائي على المحاولات المحلية لتمزيغ الإسلام، والتي قاما بها كل من البرغواطيين وحاميم الغماري. غير أن نفوذ العربية لم يقف عند هذا الحد، بل سرعان ما تحولت إلى لغة "علم"، انسجاما مع النمو الحضاري الذي عرفه الكيان الإسلامي، وتأثرا به، حيث أصبحت العربية لغة الفقه وعلوم القرآن وعلوم اللغة...، ومما يدل على قيمة هذا التطور النوعي في تعاطي المغاربة مع اللغة العربية، وأهميته هو تداولها العلمي من طرف أتباع الديانات الأخرى وبصفة خاصة اليهود.

ومن ثم، فقد مكنت الدينامية التاريخية الحديثة المغرب الأقصى من هوية جديدة، جاءت كمحصلة لتفاعلات تاريخية، استغرقت على الأقل ثلاثة قرون، قبل أن تفصح عن ذاتها. وتجلت هذه الهوية في جملة الثوابت التي أفرزها التطور الصعب، والعنيف أحيانا، الذي مر به المجال المغربي، وصمدت أمام الهزات التاريخية الكبرى، ومن أهم هذه الثوابت: الإسلام، واللغة العربية، والتراث الثقافي والحضاري العربي، والوحدة السياسية.

فباستحضار نسق الهوية التي كانت سائدة قبل الفتح، وتلك التي جاءت نتيجة لمخاضاته، يطرح السؤال التالي: هل كان للغة العربية -كلغة تعليم- دور في إحداث

هذه الثورة الهوياتية، وصياغة الهوية الجديدة؟، أو بعبارة أخرى، ما هي التعديلات التي طالت بنية الهوية، والتي ترجع لعامل اللغة؟.

إن اللغة العربية من حيث هي لغة أولا، ولغة تعليم ثانيا، أتاحت لها الظروف التاريخية التي حملتها إلى المغرب الأقصى، والوظائف الحيوية التي اضطلعت بها منذ دخولها إلى هذا البلد، التأثير بقوة ووضوح في بنية الهوية وأوصافها، وتتجلى أهم هذه التأثيرات في: تحول العربية، بحكم أدوارها، وخصوصية علاقتها بالدين إلى هوية؛ صبغ الثقافة والحضارة المغربيتين بالطابع العربي؛ المساهمة في بناء الوحدة السياسية للمغرب الأقصى وتكوين مفهوم الأمة.

- ارتقاء العربية إلى لغة هوياتية: لقد أمست اللغة العربية بعد اندماجها في النسيج الثقافي المغربي، ونتيجة للتفاعلات التاريخية التي مستها على امتداد أربعة قرون تقريبا لغة هوية، تتجاوز أدوارها وفوائدها الأدوار التقليدية، التي تضطلع بها عادة "لغة التعليم"، وفي مقدمتها الدور التعليمي الوظيفي، إلى "الدور الهوياتي"، الذي يجعل من اللغة رمزا من رموز الذات، يدخل في تعريفها وتحديدها. فالمغاربة في بداية الأمر لم يتعاملوا مع اللغة العربية كلغة مقدسة، ولا أدل على ذلك محاولات الاستغناء عنها، وتعويضها بالأمازيغية في تلقي العقيدة، ولكنها ونتيجة لارتباطها بالدين وتحديدا بالقرآن الكريم اكتسبت نوعا من القدسية أعلت من شأنها بين المغاربة.

فالذات المغربية أو الهوية المغربية بعد انصرام القرون الأربعة الأولى لا يكتمل وصفها وتعريفها بدون اللغة العربية، حيث أمست جزءا حيويا منها، ولا ترجع هذه المكانة التي باتت تتبوؤها العربية في المغرب الأقصى إلى دورها التعليمي أو التواصلي، بل إلى دورها الديني، فيندر أن تجد مغربيا راشدا بعد هذه المدة لا يحفظ شيئا من القرآن والحديث وكلام العرب.

- صبغ الحضارة المغربية بالطابع العربي: لقد انتقل المغرب الأقصى بعد إسلامه من نسب حضاري إلى آخر، حيث تخلى عن "الحضارة اللاتينية" التي أخذت في الأفول، حتى قبل مجيء الإسلام إلى هذه الأرض، وانخرط في الدينامية التاريخية والحضارية التي أطلقها الإسلام، وقد أدى هذا الانخراط الفاعل إلى ظهور نواة حضارة عربية -إسلامية في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام بالمغرب الأقصى، ساهمت اللغة العربية بقوة في تخلّقها وتحديد أوصافها.

إن الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى أطلق متتالية تاريخية جديدة ابتدأت باعتناق البربر الإسلام وانتهت بظهور حضارة فتية وراقية، فنتيجة لاعتناق البربر الإسلام، واستجابة للحاجات الدينية الملحة للمسلمين الجدد في الشمال الإفريقي ظهر "العلم" في أوساط المغاربة، الذي لم يكن يعني في البداية أكثر من حفظ القرآن الكريم، وطائفة من الروايات المسندة إلى أئمة بالمشرق، مهد الإسلام، والحافظ لإرثه بعد انقطاع الرسالة، ومع تقدم السنين تشعبت مسائل هذا العلم، وتفرعت عنه علوم أخرى، من أبرزها: علوم القرآن، وعلوم الحديث، والسيرة والتاريخ، وأصول الفقه والدين، وعلوم اللغة، ولم يتخلف المغاربة عن هذا التقدم الحاصل بالمشرق، حيث قاموا بنقل هذه العلوم إلى بلادهم، ونشروها بينهم، وفي بعض الحالات نبغوا فيها وتقدموا على أصحابها. ومن ناحية أخرى اقتضى الاجتماع البشري، وتطور أحوال العمران، ظهور علوم أخرى جديدة كالحساب والمنطق والطب والفلسفة...، التي ستعزز بنيان الحضارة الإسلامية في ربوع المجال الإسلامي بما في ذلك المغرب الأقصى. وبالتالي، وانطلاقا من هذا الوصف تكون الحضارة المغربية من نسل الحضارة الشرقية، ومثال ناجح لزواج حكمة الشرق بتجربة الغرب (المغرب الأقصى).

وهكذا فالتحولات الثقافية والحضارية الكبرى التي مر بها المغرب الأقصى بعد الفتح الإسلامي، وملابساتها التاريخية التي أفضنا في الحديث عنها سابقا، جعلت اللغة

العربية تحتكر التعبير الرمزي عن الحضارة المغربية، وصبغتها بصبغتها التي لا تمحي، فمنذ القرون الأولى حسم المغرب الأقصى أمره، وأمسى عربي الثقافة والحضارة.

- تكوين مفهوم الأمة: من أوضح أوصاف المغرب الأقصى قبل دخول الإسلام الانقسام والتجزئة الثقافية والسياسية، إذ لم ينعم الشعب المغربي في ظل الحضارات التي تعاقبت عليه بالوحدة الثقافية والسياسية، فعلى سبيل المثال شكلت المغارب الثلاث (الشمال، والوسط، والصحراء) في الفترة السابقة لدخول الإسلام وحدات بشرية، ثقافية وسياسية متمايزة، يسعى كل منها للظهور بمظهر الأمة، وتبعا لذلك لم يتذوق المغاربة لذة الإحساس بوحدة الانتماء، والأصل، والمصير، التي تشكل الأساس النفسي لمفهوم الشعب الواحد، إلى درجة يصبح معها السؤال عن وجود الشعب المغربي قبل الإسلام سؤالا وجيها.

لقد استطاع الإسلام بعد وفوده إلى بلاد البربر، ورسوخه فيها، أن يوحد بين أطراف المغرب الأقصى، دينيا، وثقافيا، وحضاريا، ومن ثم إعادة بناء مفهوم الشعب المغربي المنهار بسبب التوغلات الحضارية في العصور القديمة، وفي هذا الاتجاه ساهمت اللغة العربية بقوة وفعالية في الوصل بين أجزاء الكيان المغربي، وتكوين مفهوم الأمة على مجموع تراب المغرب الأقصى، فاحتكارها التعبير الرمزي عن الثقافة والحضارة المغربية بمختلف روافدها في الشمال والوسط والصحراء، بالإضافة إلى كونها لغة الدين، جعل منها إحدى خصائص الأمة المغربية الرئيسية ومقوماتها.

فاللغة العربية في العصر الإسلامي منحت شعب المغرب الأقصى وحدة ثقافية وحضارية، لم تتح له من قبل في إطار التجارب الحضارية التي مر بها، حيث أمست العلوم الدينية والدنيوية، والآداب المكتوبة...، ومعظم مظاهر الحضارة الأخرى، لا يعوق تداولها عائق لغوي أو ثقافي في المغرب الأقصى من ساحل المتوسط إلى تخوم الصحراء، ومن ناحية أخرى أمست هذه العلوم تعبيرا عن الجهود الفكرية للإنسان المغربي في كافة أنحاء المغرب الأقصى، ومظهرا من مظاهر نبوغه وعبقريته الفردية

والجماعية. وقد أثمرت هذه الوحدة الثقافية والحضارية وحدة شعورية أعمق منها، جعلت من مفهوم الشعب المغربي أمرا ممكنا، بل حقيقة ملموسة وجدانيا وثقافيا وحضاريا.

***

لقد ساهمت اللغة العربية -باعتبارها لغة تعليم أولا- بشكل حاسم في صياغة الهوية المغربية، وصبغها باللون العربي، وتجلى هذا الأمر بوضوح في: ارتقاء اللغة العربية إلى لغة هوياتية، نظرا لعلاقتها الخاصة بالدين؛ وإضفائها الطابع العربي على المنجز الثقافي والحضاري المغربي؛ وتعزيز مفهوم الأمة. وقد ساعدت الظروف التاريخية التي مر بها المغرب الأقصى على مدى ثلاث قرون -بدءا من دخول الإسلام- في فسح المجال أمام التأثير الهوياتي للغة العربية، بعدما أقصيت من طريقها أهم محاولات تمزيغ الإسلام.

إن هذا التحول التاريخي العميق الذي مس سائر أنحاء المغرب الأقصى: السياسية؛ والثقافية؛ والحضارية، كانت له انعكاسات إستراتيجية كبيرة على مستوى نظرة المغاربة إلى أنفسهم، وطريقة إدراكهم لذاتهم، فمنذ ذلك الحين (ق. 4هـ.) أمسى الإنسان المغربي -ثقافيا وحضاريا- عربي الانتماء، وبلده جزء من جغرافية العالم العربي، وتساوى في هذا الأمر الأمازيغ مع العرب.

فالمغرب العربي اليوم، أي المغرب الأقصى، تحقق في الواقع وفي أذهان الناس بالمعنى السالف الذكر بفضل الانفتاح والمرونة التي أبدتها الفعاليات العربية اتجاه الأمازيغية في القرون الأولى بعد الفتح، بحيث لم تطمح لإقصائها، أو القضاء عليها، بل على العكس من ذلك، احترمت وظائفها الاجتماعية والتواصلية احتراما تاما، وتعايشت معها، واقتصرت العربية على الوظائف الجديدة فقط، التي لم تكن من صميم

مهام الأمازيغية، وعلى رأسها الوظيفة الدينية، والوظيفة العلمية والثقافية، ومن ثم استمرار مفهوم المغرب العربي في المستقبل مشروط باحترام هذا التوافق التاريخي الذي تشكل منذ 10 قرون.

الفصل الثاني:

الهوية العربية وتحدي الفرنسة
من أواخر القرن 19 إلى سنة 1970م

1- استخدام الفرنسية في التعليم: البدايات والتطور.

إن قصة اللغات الأجنبية في المغرب من الناحية التاريخية شديدة الصلة بالاجتياح الرأسمالي للعالم الإسلامي خلال القرن 19م، ولا تنفصل عنه، فدخول هذه اللغات إلى المجال التداولي المغربي سوغته إرادات نهضوية وأخرى إمبريالية، ففي هذه الفقرة سنحاول متابعة قصة اللغات الأجنبية بالمغرب الأقصى وتحديدا اللغة الفرنسية في أطوار ثلاث: قبيل الحماية، وأثناءها، وبعدها.

أ- اللغة الأجنبية (الفرنسية) بالمغرب الأقصى قبيل الحماية:

برزت الحاجة إلى اللغات الأجنبية في المغرب الأقصى بشكل ملح خلال القرن 19م، وتزامن ذلك مع تصاعد الضغط الرأسمالي على بلدان جنوب المتوسط، بأشكاله المختلفة العسكرية، والسياسية، والدبلوماسية، فقبل هذا التاريخ لم تكن المعطيات الداخلية للمغرب الأقصى، ولا مستوى علاقاته الخارجية تفرض تعلم اللغة الأجنبية، لكن مع حلول القرن 19م، انقلب الوضع، وتزايدت حرارة الاحتكاك مع الغرب الرأسمالي المتربص بجنوب المتوسط، الشيء الذي فرض على القادة السياسيين المغاربة الالتفات نحو اللغة الأجنبية وإدماجها في نوع من "التعليم الرسمي"، تلبية لبعض الضرورات النهضوية والسياسية والدبلوماسية.

لقد اقتصر تدريس اللغة الأجنبية في المغرب الأقصى في البداية على البعثات الطلابية التي كانت توجهها المملكة المغربية إلى البلدان الأوروبية المختلفة لاستكمال دراستها في عدد من التخصصات العلمية الحديثة كالهندسة المدنية والعسكرية والتقنيات...، ومن أشهر المدارس التي اشتهرت بتعليم اللغات أو الألسن كما كان يصطلح عليها في تلك المرحلة المدرسة الحسنية بطنجة، التي أسسها السلطان الحسن الأول (ت.)، «والغالب أن هذه المدرسة كانت تكميلية، حيث يقع بها إعداد طلبة

مدرسة المهندسين، الذين سيذهبون لإكمال دراستهم بأوربة»،[1] وتحقيقا لهذه الغاية كانت تلقن مبادئ اللغات لطلبة البعثة قبل مغادرتهم التراب المغربي.[2]

وإلى جانب المدارس التي أنشأتها الدولة المغربية لتعليم اللغات، ظهرت مدارس أخرى في أواخر القرن 19م، مرتبطة بالإمبريالية الغربية، وتخدم أهدافها، وأهم هذه المدارس مدارس البعثة الفرنسية، التي بلغ عددها قبيل الحماية ثمانية، كانت تستقبل الأطفال المغاربة من أبناء "المحميين" والعاملين في القنصليات الفرنسية، بالإضافة إلى قلة من أبناء الفقراء والأعيان، وكانت اللغة الأجنبية وخاصة الفرنسية أحد المواد الرئيسية في هذه المدارس.[3]

وبالرغم من شح المعلومات حول مكانة اللغة الأجنبية ونفوذها في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 19م وحتى عهد الحماية الذي ابتدأ سنة 1912م، فإن ما توفر لدينا يدل دلالة قوية على أن اللغة الأجنبية في المغرب الأقصى خلال هذا العهد كانت وظيفتها دبلوماسية بالدرجة الأولى، ولم تتجاوز حدود التواصل الدبلوماسي بين الإيالة الشريفة والدول الأجنبية المتربصة بها كفرنسا وإنجلترا وإسبانيا وألمانيا...، وحتى أولئك الطلبة الذين أرسلوا إلى أوروبا ليتمكنوا من أسرار التقدم العلمي والحضاري ويعودوا بها إلى بلادهم، استغل فيهم المغرب كفاءتهم اللغوية فقط، واشتغل معظمهم مترجمين ودبلوماسيين، وقلة قليلة منهم هي التي اشتغلت في تخصصاتها.[4]

---

[1] محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج. 1، منشورات المدارس، الدار البيضاء، ط. 2/ 1985، ص. 147.

[2] مظاهر يقظة المغرب، ص. 167. إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 2/ 1994، ص. 37. خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن 19م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط. 2/ 1997، ص. 467.

[3] Fouzia Benzakour, Driss Gaadi, Ambroise Queffelec, Le Français au Maroc : Lexique et Contacts de Langue, Bruxelles, 1Ed., De Boeck & Larcier s. a., 2000,p p. 44.

[4] محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ص. 168، 185، 186. إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب، م. س، ص. 39.

ولم تستطع اللغة الأجنبية قبل الحماية أن تفرض نفسها في المجال العلمي والثقافي بالمغرب الأقصى، وتحول إلى لغة العلم والثقافة الحديثة، بالرغم من احتكارها علوم الوقت، ولا أدل على ذلك حركة الترجمة العلمية من اللغة الأجنبية وخاصة الفرنسية إلى العربية التي عرفتها مملكة مراكش في هذا العهد، والتي ترمز إلى رفض الوسط المغربي أي دور علمي أو ثقافي للغة الأجنبية،[1] لكن وبالرغم من ضيق المجال التداولي للغة الأجنبية في المغرب الأقصى في هذا العهد، فقد كانت الفرنسية قبيل الحماية اللغة الأجنبية الأولى على مستوى التدريس.[2]

ب- اللغة الفرنسية أثناء الحماية:

لكن بعد فرض معاهدة الحماية على المغرب الأقصى سنة 1912م، واستفراد فرنسا بالشأن المغربي، تغير الوضع اللغوي بالمغرب رأسا على عقب، وتبنت سلطات الاحتلال منذ البداية سياسة لغوية مدروسة ومنسقة، أمست بموجبها اللغة الفرنسية أحد أدوات السيطرة والنفوذ الاستعماري، فما هي خريطة انتشار اللغة الفرنسية في عهد الحماية؟، وما هي الوظائف الجديدة التي اكتسبتها؟.

كان المحتل الفرنسي يدرك جيدا العلاقة الوطيدة بين اللغة العربية ونسق الهوية المغربية المستند إلى عناصر: الإسلام؛ والعربية؛ ووحدة الأمة، ومن ثم فالتعريب بالنسبة لسلطات الحماية كان يعني مزيدا من الأسلمة، ووحدة الأمة المغربية، وبالتالي شدة في المقاومة ورفض للأجنبي، ولهذا عمل منذ البداية على محاربة العربية، وحرمانها من وسائل الانتشار والنفوذ، وبالمقابل عمل على توسيع التعليم الفرنسي باعتباره ضمانة استقرار الحماية ومشاريعها الاستغلالية. ولم تكن هذه السياسة العدائية اتجاه العربية المشجعة للفرنسة سرا، يتداول في دهاليز الحماية ومؤسساتها الإدارية، بل تجلت بوضوح في تصريحات ومقالات الأقطاب السياسية والثقافية للاستعمار

---

[1] محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج. 1، ص. 192- 205.

[2] Fouzia Benzakour, Driss Gaadi, Ambroise Queffelec, op. cit., pp. 37.

الفرنسي بالمغرب، ونورد فيما يلي أقوى هذه التصريحات، التي تكشف النقاب عن النوايا الخبيثة للاستعمار بالمغرب اتجاه الهوية المغربية باستعمال السلاح اللغوي، وقد جمعها وترجمها إلى العربية مشكورا الدكتور الفاضل عبد العلي الودغيري في كتاب بالغ الأهمية عنونه ب"الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب":

- يقول الجنرال ليوطي (Lyautey)* في دورية موجهة إلى ضباطه في الاستخبارات: «إن العربية عامل من عوامل نشر الإسلام، لأن هذه اللغة يتم تعلمها بواسطة القرآن، بينما تقتضي مصلحتنا أن نطور البربر خارج إطار الإسلام. ومن الناحية اللغوية، علينا أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية».[1]

- يقول موريس لوجلي (Maurice le Glay)*: «لقد كان ضباطنا ورجال إدارتنا يعتبرون دائما، نتيجة خطإ مأسوف عليه وتأثير سيء لاستشراق متحذلق، أنه من المناسب مخاطبة الجميع، من غير تمييز في شمال إفريقيا باللغة العربية (...) أما نحن فيجب أن نرى في هذا خطأ مرعبا قد يقود البربر إلى إسلام تام ونهائي، وإلى أن توجد بالمغرب، وعلى يدنا نحن (...) كتلة إسلامية منسجمة لا نظير لها... ذلك لأن الذي يسلم يظل على إسلامه، ولأننا رغم كل احترامنا للإسلام لا يمكننا نحن أن نقوم له بدور الطلائع (...) فإذا تعلم المغربي المتبربر اللغة العربية، لن يكون ذلك على أيدينا. إننا لا ندري بكل تأكيد ماذا سيفعل المستقبل بهذه الكتل المتحمسة النشيطة، ولكن هم قضيتنا العميق والمشروع يفرض أن يتم تطوير سكان الجبال باللغة الفرنسية المعبرة عن فكرنا. سيتعلم السكان البرابرة الفرنسية، إذن، وسوف يحكمون بالفرنسية».[2]

* ليوطي: أول مقيم عام فرنسي بالمغرب، الذي أرسى قواعد السياسة الاستعمارية بهذا البلد.

[1] عبد العالي الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية..، كتاب العلم، الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط، ط. 1/ 1993، ص. 86.

* موريس لوجلي: ضابط للاستعلامات الفرنسية بالمغرب، والمراقب المدني لمنطقتي عبدة ودكالة.

[2] عبد العالي الودغيري، الفرانكفونية والسياسة اللغوية..، م. س. ص. 103.

- يقول فيكتور بيكي (Victor Piquet)*: «هؤلاء السكان يمكنهم، بل يجب عليهم في وقت قصير، أن يصبحوا فرنسيين لغة وروحا. ولو أن شخصا قام بزيارة الفلاحين في (حاحا) (...) ولو أن أحدا رأى سكان الجبال رغم عزلتهم في الأطلس الكبير (...) لما ساوره الشك في أن كل بلاد الشلوح (...) ستصبح بعد أعوام قليلة، مقاطعة فرنسية حقيقية».[1]

وإجمالا، إن سدنة الاستعمار الفرنسي وأركانه في المغرب الأقصى -كما تدل على ذلك هذه العينة من التصريحات- كانوا يدركون تماما طبيعة العلاقة القائمة بين الهوية ولغة التعليم، وفي السياق نفسه كانوا يدركون أن المقاومة الشديدة التي واجهتهم في سائر أنحاء المغرب، في الجبال، والسهول، والصحراء، سببها الهوية العربية - الإسلامية التي يمتاز بها الشعب المغربي، ولهذا عملوا على استهداف هذه الهوية بتفكيكها، وإضعافها من خلال لغة التعليم، حتى يستتب لهم الأمر، ويصفو لهم الجو.

استنادا إلى هذه القناعة، خطط الفرنسيون للتعليم في المغرب الحديث، وأنشأوا المدارس، ووضعوا البرامج...، فبعد توقيع معاهدة الحماية في مارس 1912م، اتجهت سلطات الحماية إلى تأسيس التعليم الحديث، الذي يعكس الرؤية الاستعمارية، ويحقق مصالحها من جهة، ويتجاوز التعليم التقليدي- الإسلامي الذي كان سائدا، وقد انقسم هذا التعليم إلى قسمين:

- تعليم أوروبي: اقتصر على أبناء الجاليات الأوروبية المستقرة بالمغرب، ولا يسمح بولوجه للأطفال المغاربة؛[2]

* فيكتور بيكي: أحد المثقفين الفرنسيين المتحمسين للسياسة البربرية.

[1] الفرنكفونية والسياسة اللغوية...، ص. 147، 148.

[2] Fouzia Benzakour, Driss Gaadi, Ambroise Queffelec, op. cit., pp. 38.

- تعليم فرنسي: استهدف الناشئة المغربية، وانقسم هو الآخر إلى عدة فروع، من أهمها: مدارس أبناء الأعيان، المدارس الفرنسية - الإسلامية (العربية)؛ المدارس الفرنسية البربرية؛ والتعليم الشعبي بشقيه القروي والحضري والمهني....[1]

فإذا كان التعليم الأوروبي بحكم الفئة المستهدفة لم يهتم بالثقافة المغربية واللغة العربية، وكان يدرسها كلغة أجنبية فقط، مثلها مثل الإنجليزية،[2] فإن التعليم الفرنسي الذي يستهدف أساسا أبناء المغاربة، لم يختلف عنه كثيرا، وحاول بكل الوسائل إضعاف اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وفي المقابل تعزيز مكانة اللغة الفرنسية، فعلى سبيل المثال: مدارس أبناء الأعيان كانت تدرس تلامذتها القرآن والعربية، أما بقية المواد فكانت تدرس بالفرنسية، وبالتالي كان الغلاف الزمني لمادتي القرآن والعربية أصغر بكثير من المواد المفرنسة؛[3] والمدرسة الفرنسية -الإسلامية كانت تدرس الإنسانيات الإسلامية والعربية في 11 ساعة، بينما تدرس المواد الفرنسية (اللغة والعلوم) في 20 ساعة.[4]

غير أن أرقى مظاهر الإقصاء الثقافي والتعصب ضد اللغة العربية والإسلام تجلى في المدارس الفرنسية -البربرية، المتمركزة في المناطق البربرية (الأطلس)، التي ألغت جميع المواد العربية من منهاجها الدراسي، وشطبت على كل إحالة على الإسلام، ودرست جميع المواد باللغة الفرنسية،[5] وإمعانا في التعصب لقنت اللغة البربرية بالحرف

[1] Ibid., pp. 45- 49.

[2] Ibid., pp. 38.

[3] Ibid., pp. 45.

[4] Ibid., pp. 46.

[5] يشير الأستاذ محمد شفيق إلى أن العربية كانت تدرس في مدرسة أزرو خارج الحصص العادية وفي ظروف مزرية جدا، وسيتحسن الاهتمام بالعربية في هذه المدرسة وبالمقابل سيتراجع تلقين الأمازيغية مع اقتراب تاريخ الاستقلال، ولعل هذا التحول في نظرنا يرجع إلى الضغط القوي الذي مارسته الحركة الوطنية خاصة بعد أزمة الظهير البربري الذي استهدف تمزيق الوحدة الثقافية المغربية... (محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، م. س. ص. 48).

اللاتيني، واستمرارا لهذه السياسة، وحتى تحول بين المغاربة الأمازيغ وبقية أفراد الشعب المغربي، أسست مدرسة أزرو (Collège de Azrou) سنة 1934م، ليستكمل فيها أبناء الأمازيغ خريجو المدارس البربرية دراستهم دون الحاجة إلى الالتحاق بالمدارس "الإسلامية" في المناطق الأخرى.[1]

أما في مجال التعليم العالي، فلم تختلف الوجهة كثيرا، حيث حرصت سلطات الحماية الفرنسية على ربط خلايا البحث العلمي التي أسستها في المغرب الأقصى، سواء في مجال الإنسانيات، أو العلوم الطبيعية بأهدافها، ولم تتح في هذا السياق للغة العربية فرصة المشاركة العلمية المقدرة، ومن أبرز المؤسسات البحثية التي أنشأها الاحتلال الفرنسي بالمغرب "معهد الدراسات العليا المغربية (H.E.M)" (1920م)، والذي بعد تطورات مختلفة استقر عمله على أمرين التدريس والبحث العلمي، واستهدف توسيع المعارف باللغات المحلية، والجغرافيا والتاريخ...، غير أنه لم يرق إلى مستوى مؤسسة جامعية. ومن أبرز منشورات هذا المعهد المجلة المغربية الفرنسية الشهيرة هسبيرس (Hespéris).[2]

وقد تفطنت الحركة الوطنية المغربية للأخطار، التي بات يشكلها التعليم الفرنسي على الجماعة الوطنية المغربية وهويتها، وحاولت معارضة سياسة سلطات الحماية في هذا المجال، وفضح مؤامراتها على اللحمة الوطنية في الصحافة والمنتديات السياسية، غير أن أبرز خطوة قامت بها في هذا الاتجاه، هي إقدامها على تأسيس المدارس الحرة، التي تحولت بسرعة شديدة إلى حركة مقاومة تربوية للسياسة الفرنسية في المغرب، وفي هذا الصدد يقول أحد أقطاب هذه الحركة هو محمد حسن الوزاني: «فكرنا في تأسيس مدارس حرة نتعلم فيها الناشئة أصول الدين، والعربية، والعلوم، زيادة على القرآن، وذلك بأساليب جديدة (...) وكل هذا على نسق المدارس العربية الفرنسية لأبناء

[1] Ibid., pp. 47.

[2] Ibid., pp. 39,40.

المغاربة، وكان في إحداث علم المدارس تطوير كبير، وتجديد أساسي لكتاتيب القرآن، كما كان فيه رد فعل ضد طغيان التعليم الفرنسي على الديني والعربي في المدارس المغربية الرسمية».[1]

وإجمالا، إن التعليم الفرنسي بالرغم من محدوديته، التي تتجلى في الأعداد القليلة للأطفال الذين استفادوا منه، والنفقات الهزيلة التي رصدتها سلطات الاحتلال لتحقيق أهدافه، وبالرغم من مقاومة الحركة الوطنية له، استطاع تكوين نخبة حديثة مفرنسة تمركزت في الإدارة بالدرجة الأولى، أمست قبيل رحيل الاحتلال، وبعد رحيله، المنافح القوي عن المصالح الثقافية الفرنسية في المغرب، والمدافع الصلب عن الازدواجية اللغوية بالمغرب أمام النخبة المعربة المعارضة لها.

ومن الناحية الوظيفية استطاع التعليم الفرنسي أن يعيد توزيع الوظائف بين اللغات الحية في المغرب (الفرنسية والعربية)، حيث أصبحت اللغة الفرنسية لغة الإدارة والاقتصاد، ولغة العلم والثقافة الحديثة، بعدما كانت قبل الحماية تقتصر فقط على الوظيفة الدبلوماسية، بينما تراجع دور العربية في هاته المجالات وأمست لغة دينية تراثية مفصولة عن الواقع، ترتبط بالأنشطة التقليدية فقط.[2]

ج- اللغة الفرنسية بعد الحماية:

بعد أزيد من أربعين سنة من الفرنسة (1912- 1956)، والتهميش الوظيفي للغة العربية، رفعت الجماعة الوطنية المغربية شعار التعريب، الذي عكس حجم الحنق على السياسة اللغوية الفرنسية في المغرب الأقصى، وحاولت العربية استرجاع وظائفها المسلوبة منها في مجالات الإدارة والتعليم والمحيط...، وفي هذا السياق الوطني الخاص انعقدت اللجنة الملكية للتعريب سنة 1957م، التي بلورت المبادئ الأربع لمشروع

[1] محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، ج. 1، منشورات مؤسسة محمد حسن الوزاني، ص. 373.

[2] علال الفاسي، النقد الذاتي، منشورات مؤسسة علال الفاسي، الرباط، ط. 8/ 2008، ص. 289.

إصلاح التعليم: التعريب، والمغربة، والتوحيد، والتعميم، وبعدها تم تأسيس معهد دراسات وأبحاث التعريب (I.E.R.A) سنة 1960م.[1]

غير أن الأسئلة التي رافقت النقاش الوطني حول مسألة التعريب، من قبيل طبيعة التعريب المنشود، هل الكلي أم الجزئي؟ المرحلي أم الفوري؟، ثم ماذا سنعرب؟ وكيف سنعرب؟...، قسّمت الجماعة الوطنية إلى ثلاث تيارات رئيسية: التيار التقنوقراطي الحداثي (الفرانكفوني)، الذي اعتبر استمرار الهيمنة الفرنسية ضرورية للانفتاح العلمي والاقتصادي، والاتصال بأسباب الحداثة والتقدم بالضفة الشمالية؛ والتيار التقليدي العربي- الإسلامي، الذي مثلته نخبة القرويين وملحاقاتها، والمنحدرة من التعليم الأصيل، وكان يرى كفاءة العربية للقيام بسائر الأدوار، وبالتالي لابد من إعادة الاعتبار لها في سائر المجالات التي سرقت منها في ظل الاحتلال؛ والتيار الأنتروبولوجي الثقافي، والذي حاول إقناع جميع الأطراف بضرورة اقتسام النفوذ بين اللغتين العربية والفرنسية حيث جعل للأولى المجال الداخلي وللثانية المجال الخارجي.[2]

وإجمالا، بالرغم من النقاش السياسي العميق والجاد بين سائر التيارات حول قضية التعريب، الذي عكسته المناظرات والندوات الوطنية العديدة التي نظمت لمدارسته، وما يتصل به (المعمورة 1964، وإفران 1980/70)، والإجراءات المتخذة من طرف الحكومات المتعاقبة في المملكة المغربية، فإن التعريب عمليا بقي محدودا، وتأرجح بين تعريب شامل لبعض القطاعات (العدل)، وجزئي في قطاعات أخرى كالتعليم والمالية والمعهد الوطني للإحصاء،[3] الشيء الذي جعل من

---

[1] Fouzia Benzakour, Driss Gaadi, Ambroise Queffelec, op. cit., pp. 57, 58.

[2] Ibid., pp. 58- 60.

[3] حاول الدكتور مصطفى بنيخلف تعريب سلك مهندسي الإحصاء، ونجح في تأسيس قسم معرب إلى جانب الأقسام المفرنسة، وذلك سنة 1978، غير أن هذه التجربة فشلت بسبب المحاصرة وسياسة الإلحاق المتبعة في التعليم العالي، وقد تحدث الدكتور مصطفى بشكل واف عن هذه التجربة في حوار مع مجلة عالم التربية. (مصطفى بنيحلف، حوار صحفي، مجلة عالم التربية، العدد الرابع، 1996، ص. 33- 39).

الازدواجية اللغوية حقيقة ملموسة في الحياة العامة المغربية لا يمكن القفز عنها أو تجاهلها. وبحسب الأستاذ محمد بلبشير الحسني مقرر لجنة التعليم في عهد السلطان محمد الخامس (1957)، فإن العاهل المغربي الراحل الحسن الثاني كان له رأي حاسم في المدى الذي يجب أن يبلغه التعريب.[1]

فاللغة الفرنسية في المغرب الأقصى بعد الاستقلال، بقيت حاضرة وبقوة في مجالات الإدارة الاقتصادية، والتعليم الأساسي والعالي، والمجال الأسري، وكلغة التخاطب في الإدارة، كما حافظت على وجودها، بل وعززته في الصحافة بأنواعها المختلفة، والمجال الثقافي والفني، وفي العلاقات الاجتماعية الخاصة بين الأصدقاء وداخل الأسرة.[2]

2- النخبة المفرنسة بالمغرب الأقصى بعيد الاستقلال:

مكن استخدام اللغة الفرنسية في التعليم الحديث بالمغرب، وعلى مدى ستة عقود تقريبا، من تكون نخبة مفرنسة مبثوثة في مختلف مرافق الدولة والمجتمع، تمثل لها الفرنسية لغة العمل، ولغة الثقافة والإعلام...، وقد اضطلعت -هذه النخبة- بأدوار مهمة في المملكة المغربية سواء في فترة الاحتلال، أو بعد رحيله، وستتحول بعد مدة وجيزة إلى قوة فرانكفونية تربط مصير المغرب الحضاري بفرنسا.

[1] صرح لنا الأستاذ بلبشير في حوار حول هذا الموضوع أن وزير التربية الوطنية السيد يوسف بلعباس أواخر سنة 1962طلب منه إعداد مشروع للتعريب وإصلاح التعليم، وبعد تردد قبل العرض، وتفرغ إلى جانب عناصر أخرى لإعداد خطة لهذا الغرض، وبعد تمام الأمر وعرض المشروع على الملك الحسن الثاني رحمه الله، انتهى كل شيء، فقد طلب الملك من اللجنة إعادة النظر في المشروع، وخاصة في جانب التعريب، وبعد رفضها بطريقة لبقة هذه المراجعة، طلب الملك مقابلتهم، وأثناء اللقاء أفصح الراحل الحسن الثاني عن موقفه من تعريب التعليم، وخاصة في الأسلاك العليا ولو على مدى زمني طويل، وهكذا فشلت هذه المبادرة.

[2] Ibid., pp. 76.

لقد نهجت سلطات الاحتلال الفرنسي سياسة إقصائية اتجاه العناصر المعربة في المجال العمومي بمستوياته المختلفة، وبالمقابل فسحت المجال أمام العناصر المفرنسة، المتخرجة حديثا من المدارس الفرنسية- الإسلامية، ووضعت لهذا الغرض مجموعة من الضوابط القانونية، وعلى رأسها نظام المباريات في ولوج الوظيفة العمومية، الذي لم يكن معروفا من قبل في المغرب، بحيث أصبحت الشواهد المدرسية والدبلومات خاصة شهادة الدروس الثانوية (البروفي)، التي كانت تقدمها المدارس الفرنسية شرطا أساسيا لاجتياز معظم المباريات وأهمها، الشيء الذي لم يتوفر للطلبة المعربين خريجو التعليم التقليدي، وبالتالي تم إقصاؤهم من الوظيفة العمومية.[1] ويحكي أحد طلبة القرويين سنة 1955 عن حالة الإقصاء هاته، ومصير طلبة التعليم الأصيل قائلا: «فالوظائف أخذت توزع، وحظ المثقف بالعربية بات محددا في دوائر خاصة لا تكاد ترضي طموح أصحاب النفوس التي لها نوع من الشفوف (...) وهكذا أصبح واضحا أن أربعين سنة من الحماية أو تزيد كانت لصالح المثقف بالفرنسية وأن حامل شهادة الدروس الثانوية بالفرنسية قد ينال من السلطة والنفوذ والمرتب في الدولة ما لا يجوز لحامل العالمية أن يحلم به».[2]

وبالرغم من صدور ظهير سنة 1955م، الذي نص على تسهيل تكوين المغاربة، وإدماجهم في الوظيفة الإدارية ممن لم يحرزوا على شهادات، وأوقف العمل بشرط الشهادة في التباري على الوظيف بشكل عام، ولمدة خمس سنوات،[3] فإن نهج الإقصاء بقي مستمرا بأشكال مختلفة، وهو ما أكدته رابطة علماء المغرب في بيانها الصادر سنة 1960م، بعد مرور زهاء خمس سنوات عن صدور الظهير السالف

[1] هناك العديد من أمثلة المباريات التي نظمتها الإقامة العامة الفرنسية لاختيار بعض الموظفين من خريجي المدارس الفرنسية الإسلامية، ويكفي في هذا السياق مباراة تعيين موظفين لقبض الضرائب البلدية، التي كانت تتطلب من المتقدمين لها الحصول على البروفي. (الجريدة الرسمية، العدد: 2215، الصادرة بتاريخ 8 أبريل 1955، ص، 965).

[2] محمد الأمين الدرقاوي، تأملات وآراء حول التعليم الأصيل بالمغرب، مطبعة الأمنية ومكتبها بالرباط، 1975، 5، 6.

[3] الجريدة الرسمية، العدد: 2226، الصادر بتاريخ 24 يونيو 1955، ص. 1782.

الذكر،[1] الشيء الذي يدل على أن مشروع "تسهيل إدماج المغاربة في الوظيفة" الذي جاء به ظهير 1955م كان مجرد دعاية سياسية، تزامنت مع أجواء التحضير للاستقلال، وإعلان الحكومة الأولى، ولم يرق إلى مشروع سياسي قابل للتنفيذ.

ولعل أقوى مظاهر تغلغل الفرنسة في المجال السياسي المغربي، وتمكنها من نخبته، انتماء معظم أفراد الحكومات الأولى، للمدرسة الفرنسية، بما في ذلك بعض رموز الحركة الوطنية كعبد الله إبراهيم، وعبد الرحيم بوعبيد، غير أن أكثر هذه الأسماء حماسا للفرنسة، وربط المغرب بالفلك الفرنسي: امبارك البكاي الهبيل، رئيس وزراء المغرب في الحكومة الأولى، وأحمد رضا اكديرة، ومحمد بنهيمة...إلخ.[2]

وإلى جانب النخبة السياسية المفرنسة ظهرت في مغرب الاستقلال نخبة ثقافية "فرانكفونية"، استكمل معظم أفرادها تكوينهم العالي في الجامعات الفرنسية،[3] وعادوا إلى المغرب بلسان فرنسي مبين، ومن أشهر المثقفين المغاربة الكتّاب باللغة الفرنسية بعيد الاستقلال:

- الأديب أحمد السفريوي: الذي التحق بالمدرسة الفرنسية ومنها تخرج. ألف العديد من النصوص الأدبية باللغة الفرنسية، من أشهرها: "سبحة من عنبر" (Le Chapelet d' ambre) 1949م، و"المدن الدينية الثلاث بالمغرب" (Trois Villes saintes du Maroc) 1955م، و"أحلم بالمغرب" (Réver du Maroc) 1970م، ونال العديد من الجوائز تقديرا لأدبه الفرانكفوني، ومن أبرزها: جائزة

---

[1] أحمد بن شقرون، مواقف وآراء رابطة علماء المغرب من التأسيس إلى المؤتمر العاشر، منشورات رابطة علماء المغرب، ص. 101.

[2] الجريدة الرسمية، العدد: 2252، 23 دجنبر 1955.

[3] قبيل الاستقلال وبعده بقليل توزع الطلبة المغاربة بين وجهتين علميتين رئيسيتين؛ مشرقية وغربية، ومن أهم أعلام الثقافة المغربية المعاصرة الذين استكملوا تعليمهم العالي بالشرق مستشار الملك عباس الجيراري الذي تخرج من القاهرة، ومحمد عابد الجابري من سوريا...، في حين قصد الغرب عدد آخر من الطلبة ، ومن أبرزهم الحبابي والعروي...

"مارسولان جيران" مهداة من الأكاديمية الفرنسية سنة 1949، وجائزة رئيس الجمهورية الفرنسية.[1]

- الأديب إدريس الشرايبي: تخرج من ثانوية ليوطي بالمغرب، ومنها انتقل إلى فرنسا لاستكمال تعليمه العالي في تخصص الكمياء، وغلب عليه الأدب مبكرا بالرغم من اتجاهه العلمي، قال عنه عبد الغني أبو العزم: «الشرايبي إنسان مهزوم تخلى عن وطنيته بكل بساطة وعن مجتمعه لمجرد رغبة ذاتية».[2] ألف الشرايبي العديد من النصوص الأدبية باللغة الفرنسية، كانت أولاها رواية: « Le Passé simple » سنة 1954، ثم تلتها روايات أخرى، انتشرت في شتى أنحاء العالم مثل: Les Boucs (1955)، La Foule (1961)، Un ami viendra vous voir (1967)....[3]

- محمد عزيز الحبابي: من أوائل المغاربة الذين التحقوا بباريس لاستكمال دراستهم العليا في تخصص مثير في ذلك الوقت، وهو الفلسفة، حيث حصل هناك على شهادة الدكتوراه من السوربون، وبعد عودته إلى المغرب تفرغ للتدريس والبحث العلمي، واشتهر بنظريته في الشخصانية الإسلامية، ألف العديد من الكتب والمقالات العلمية أغلبها بالفرنسية، وترجم بعضها إلى العربية، ومن أهم هذه المؤلفات[4]:

De L'Etre à la personne : essai d'un personnalisme réaliste .

-(1953)

Du Clos à l'ouvert : vingt propos sur les cultures nationales

-(1961).

-Le Personnalisme musulmane (1964).

[1] عبد الله بن العباس الجيراري، التأليف ونهضته بالمغرب، منشورات نادي الجيراري، مكتبة المعارف، الرباط، ط. 1/ 1985، ص. 36، 37.

[2] عبد الغني أبو العزم، رأي في الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية، مجلة أقلام، الدار البيضاء، العدد المزجود، 4/ 5، سنة 1967، ص. 125.

[3] Abdellatif laâbi, questionnaire, Revue Souffles, Rabat, N. 5, Année 1967, P. 4.

[4] عبد الله الجيراري، التأليف ونهضته بالمغرب، م. س. ص. 171، 172.

وقد أثار الظهور الفاعل للنخبة المفرنسة في مغرب الاستقلال -وخاصة الثقافية منها- من خلال استعمالها اللغة الفرنسية نقاشا واسعا في الحقل الثقافي المغربي، احتضنته عدد من المنابر الثقافية الصادرة في تلك الآونة، حيث اعتبر البعض استمرار اللسان الفرنسي في المغرب أو ما يسمى بالازدواجية اللغوية نوعا من الخيانة، وعلامة على الفشل في الاستقلال، وكارثة، في حين رأى البعض الآخر خلاف ذلك. ويعتبر مقال الأستاذ عبد اللطيف اللعبي (1966) ، حول "حقائق ومعضلات الثقافة الوطنية" (Réalités et dilemmes de la culture nationale) ومقال عبد الغني أبو العزم "رأي في الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية" (1967)، كافيان لمن أراد الاطلاع على أبعاد هذا النقاش الفكري، ووجهات النظر الرئيسية التي كان يتحصن وراءها كل من المعارضين والمؤيدين ل"الأدب المغربي الفرنسي"، فبحسب اللعبي الثنائية اللغوية ليست مشكلة تصفية الاستعمار، ولكنها مشكلة خاصة، مشكلة كاتب تلقى تعليمه بالمدارس الفرنسية، ونشأ في تعليم أحادي مكنه من التعبير باللغة الفرنسية فقط،[1] ونفس الشيء يؤكده الأديب الفرانكفوني إدريس الشرايبي متحدثا عن تجربته في حوار مع اللعبي نشرته أنفاس سنة 1967.[2]

وهكذا، فبعد مرور حوالي 44 سنة من القبضة الفرنسية المباشرة على المغرب، آلت السلطة بطريقة سلسلة إلى النخبة المغربية المفرنسة، التي تخرجت من المدارس الفرنسية، ولم تختلف في هذا الباب العناصر الوطنية عن العناصر الموالية لفرنسا. ولعل أبلغ دليل على عمق الفرنسة في النخبة المغربية وخاصة السياسية منها، ما صرح به رئيس الوزراء في الحكومة الأولى (1955) الباشا امبارك البكاي الهبيل في محادثات "إيكس ليبان" أمام الفرنسيين، حيث قال: «إني متأكد من فرانكفونية

---

[1] Abdellatif laâbi, questionnaire, Revue Souffles, Rabat, N. 4, Année 1966, P. 9, 10, 12.

[2] Abdellatif laâbi, questionnaire, op. cit., pp, P. 9.

عبد الغني أبو العزم، رأي في الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية، م. س. ص. 125.

المغاربة، لكنهم يرغبون في تطور نحو سيادة المغرب وفي المحافظة على حقوق فرنسا والفرنسية. إن المغرب لا يمكنه أن يطالب في عصر الذرة بدولة منعزلة لأنه مزدوج اللغة».[1] وفي الاتجاه نفسه أدى التعليم الفرنسي الذي أقرته الحماية الفرنسية، والتعريب المتعثر بعيد الاستقلال إلى تبلور نخبة ثقافية مفرنسة، ساهمت في إثراء الساحة الثقافية المغربية بنصوص أدبية وفكرية مختلفة.

3- اللغة الفرنسية في مغرب الاستقلال أو "التوسع الوظيفي" للفرانكفونية:

إن اللغة الفرنسية بعد الاستقلال، لم تفقد نفوذها في المجال التداولي المغربي بمستوياته المختلفة، واستمرت في أداء مجموعة من الوظائف التي باتت حكرا عليها، أو تؤديها إلى جانب العربية، واستطاعت في مدة قصيرة أن تعيد بناء شرعية محايثة للخطاب الوطني، ومتوافقة مع ظروف الاستقلال السياسية والوجدانية، الشيء الذي جعل المغرب مثالا ل"التوسع الوظيفي"[2] للغة الفرنسية خارج جغرافيتها الطبيعية (فرنسا، والأجزاء الفرنكفونية من بلجيكا وسويسرا).

من أهم المجالات التي تجلى فيها نفوذ اللغة الفرنسية، وأدت خلالها وظيفة تداولية واضحة: المجال الإداري، والاقتصادي، والتعليمي، والثقافي...، ولم يستطع الحماس الوطني القوي الذي رافق لحظة الاستقلال شطب لغة الاستعمار من التداول الرسمي في الإدارة العمومية، والمجالات الحياتية الأخرى، فبالرغم من مناداة قطاع

---

[1] مداخلة البكاي في محادثات إيكس ليبان، المحاضر الرسمية لمفاوضات إيكس ليبان، مجلة الملفات المغربية الكبرى، العدد 1، أبريل 1996، الرباط، ص. 14.

[2] اصطلح كالفي على التوسع الفرانكفوني في أراضي أخرى عبر العالم، وبعيدة عن جغرافيتها الطبيعية بالتوسع الوظيفي، ومثل لهذا النوع من التوسع بما يجري في كبيك، وإفريقيا السوداء...، وتقوم الفرنسية في هذا النوع من التوسع بوظائف محددة خلافا لوضعها في بيئتها الطبيعية. (ل. ج. كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، م. س. ص. 344، 345).

عريض من النخبة المغربية بالتعريب الشامل، وفي طليعتها حزب الاستقلال، استمر استعمال الفرنسية كلغة إدارة في معظم المؤسسات العمومية، كليا أو جزئيا، واستمرت معها أفضلية الأطر المفرنسة على المعربة، في تناقض تام مع الشعارات السياسية التي روجها الوطنيون المغاربة، وهذه حقيقة لا تخطئها العين، ولا تحتاج إلى دليل لإثباتها.[1]

إن معضلة الفرنسة في مغرب الاستقلال، طرأ عليها تحول كبير بين مطلع الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، فلم تبق مجرد قضية من قضايا تصفية "الإرث الاستعماري"، كما يظهر من خلال السجال الوطني، بل أمست قضية مرتبطة بأسئلة الحداثة والانفتاح الحضاري، ومن ثم لم يعد الخطاب الوطني الممجد للعربية بصدد أسئلة التقنية، والعلوم الحديثة، والإفادة من تجربة الآخر الأوروبي (فرنسا) في النهضة والتقدم، مقنعا ووجيها، الشيء الذي أرغم دعاة التعريب على التنازل عن راديكاليتهم اللغوية، ولو مؤقتا، والقبول بنوع من الازدواجية، وخاصة في التعليم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما ستطرأ على الساحة السياسية الإقليمية والدولية بعض التطورات، ستعيد توجيه السؤال اللغوي في البلدان الحديثة العهد بالاستعمار، وستصب في صالح الفرنسة، ويتعلق الأمر بتأسيس "وكالة التعاون الثقافي والتقني" بين الدول الفرنكفونية في القارات الخمس سنة 1970،[2] التي ستأخذ على عاتقها مهمة دعم الفرنسة في المستعمرات القديمة، ثقافيا وسياسيا. الشيء الذي أتاح لفرنسا مرة أخرى العودة لمستعمراتها من باب البعد الثقافي "البريء"، حتى

---

[1] Fouzia Benzakour, Driss Gaadi, Ambroise Queffelec, op. cit., pp. 76.

رحمة بورقية، التعدد اللغوي بين المجتمعي والسياسي، مجلة المدرسة المغربية، الرباط، العدد: 3، مارس 2011، (13-41)، ص. 18.

[2] ل. ج. كالفي، حرب اللغات، م. س، ص. 367.

ترضى عنها «الشعوب والنخبة التي تكونت في المناخ الفرنسي دون أن تشعر بإحراج مع شعوبها أو حساسية دولية أو وخزة ضمير».[1]

وصفوة القول، إن التحولات السياسية الداخلية والخارجية التي أثرت على القرار اللغوي في مغرب الاستقلال، أمّنت مكانة الفرنسية في الحياة المغربية، وحصنت وظائفها القديمة والجديدة في الإدارة والاقتصاد والتعليم ...، وبالمقابل، حدت من طموح العربية في استرجاع وظائفها التي سرقتها منها الإمبريالية الفرنسية.

4- تأثير اللغة الفرنسية على الهوية المغربية:

دخلت اللغة الفرنسية إلى المجال التداولي المغربي على ظهر أحصنة مختلفة، ففي البداية ركبت ظهر الإمبريالية، وبعدها استعملت شعارات الانفتاح والحداثة، وفي مرحلة ثالثة استفادة من الدعم السياسي والثقافي للمنظمة الفرنكفونية، واستطاعت من خلال هذه الوسائل حجز مكانة "وظيفية" مرموقة في الحقل اللغوي المغربي، وعلى حساب اللغة العربية التي كان يأمل أنصارها باستعادة وظائفها التاريخية بعد الاستقلال، ومن ثم ف"مغربة اللغة الفرنسية" في السنوات الأولى التي تلت إلغاء معاهدة الحماية (1956)، وإخراجها سياسيا وحضاريا من دائرة الإرث الاستعماري، سيؤثر بدرجات متفاوتة على بنية الهوية المغربية، وعناصرها الأساسية.

والجدير بالذكر في هذا السياق أن الوعي المبكر لدى بعض أقطاب الحركة الوطنية المغربية بالصلة القوية بين اللغة والهوية، وعلى رأسهم قائد حزب الاستقلال الزعيم علال الفاسي،[2] لم يستطع التأثير على "السياسة اللغوية" للحكومات التي أعقبت

---

[1] عبد الكريم غلاب، رهانات الفرنكفونية في علاقتها بمسألة التغريب والهيمنة، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، سلسلة الدفاتر القومية، 8، الرباط، 1999، ص. 47.

[2] يقول علال الفاسي: «إن الأمة التي تتعلم كلها بلغة غير لغتها لا يمكن أن تفكر إلا بفكر أجنبي عنها»، ويحدث في نفس السياق عن صديقه أحمد بلافريج: «العلم إذا أخذته بلغتك أخذته، وإذا أخذته بلغة غيرك أخذك». (علال الفاسي، النقد الذاتي، منشورات مؤسسة علال الفاسي، ط. 8/ 2008، ص. 290).

الاستقلال، سوى بشكل محتشم، ولم يؤثر -أيضا- على مصير الفرنسية في المجال التداولي المغربي.

وبالتالي، ساهم استعمال الفرنسية كلغة تدريس في عهد الحماية، وبعدها -بالرغم من اختلاف شكل هذا الاستعمال بين العهدين- إلى تداعيات مختلفة على الهوية المغربية بثوابتها المختلفة، وتجلت الإرهاصات الأولى لهذا التحول في أمارات الحيرة، التي بدت على وجه الثقافة المغربية بعيد الاستقلال، والحاجة المتزايدة لإعادة تعريف الهوية المغربية في ضوء ما استجد من معطيات، وفي هذا السياق كتب الأستاذ أحمد السطاتي سنة 1964م مقالا دالا في مجلة أقلام[1] عن وضعية المثقفين بالمغرب، ضمنه بعض الأسئلة التي تعكس حيرة جيله، منها على سبيل المثال: إلى أي حد يمكن أن نسير في تيار التطور الحديث من دون التخلي عن شخصيتنا؟ ما هي الهوية الحقيقية للمغرب؟.[2]

غير أن هذا القلق الهوياتي، الذي تجلت عباراته على وجه جيل الاستقلال، لم يكن عاما وشاملا، يهم سائر أفراد هذا الجيل، الذي تلقى تعليمه في المدارس الفرنسية، بل وُجد من بين خريجي هذه المدارس عدد لا بأس به ممن كانوا مطمئنين للصيغة الكلاسيكية للهوية المغربية، ومدافعين عنها، ويرفضون كل تعديل يمس عناصرها، ومن أبرز هذه النماذج الأستاذ محمد الفاسي الذي أشرف على أول محاولة تعريبية بعد الاستقلال،[3] والأستاذ محمد بلبشير الحسني الذي أعد إلى جانب أفراد آخرين مشروع إصلاح التعليم في عهد وزير التعليم بلعباس، والأستاذ محمد زنيبر...، وقد اشتبك هؤلاء مبكرا مع دعاة الحداثة، وسنذكر في الفقرات التالية أمثلة من تناظر الطرفين.

[1] مجلة أقلام مجلة ثقافية متنوعة أصدرها مجموعة من الشباب الوطني ذي الميول الحداثية ابتداء من سنة 1964، ومن أبرز أقلام هذه المجلة محمد برادة وأحمد السطاتي رئيس تحريرها أنذاك...

[2] أحمد السطاتي، وضعية المثقفين بالمغرب، مجلة أقلام، العدد 1، سنة 1964، ص. 25.

[3] عبد الله الجيراري، التأليف ونهضته بالمغرب، م. س. ص. 206، 207.

ومن ثم، فأزمة الهوية المغربية بعد الاستقلال بدلالة لغة التعليم (الفرنسية) يمكن مقاربتها من خلال ثلاث مستويات رئيسية: إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر المغربي المعاصر إلى نهاية الستينيات، والتوسع الكمي لاستعمال اللغة الفرنسية في الحقل الثقافي، وبروز الحركة الثقافية الأمازيغية.

- **إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر المغربي:** إن رسوخ التعليم الفرنسي بالمغرب الأقصى، والظروف الثقافية الجديدة التي ساهم في إحداثها أدت إلى توتر ثقافي غير مسبوق في المجال المغربي، ظهرت علاماته في السنوات الأولى بعد الاستقلال، حيث برز انشقاق واضح في الرؤى والتصورات حول مفهوم الهوية المغربية، فلأول مرة في تاريخ المغرب المعاصر ظهر الخلاف بشكل سافر بين دعاة الأصالة، ودعاة الحداثة.

ولتقديم فكرة واضحة عن هذا التوتر الثقافي الذي شهده المغرب بعيد الاستقلال بسنوات قليلة، وطبيعة الصراع بين تياري الأصالة والحداثة نستحضر مناظرة جادة وقوية بين كل من الأديب والناقد محمد برادة والأديب والمؤرخ محمد زنيبر، احتضنتها مجلة أقلام سنة 1964.

كتب محمد برادة في العدد الثاني من مجلة أقلام مقالا بعنوان "عودة المثقفين"، يشير فيه إلى الأدوار التحديثية التي يجب أن يضطلع بها المثقف المغربي في عهد الاستقلال، وعلى رأس هذه الأدوار تمهيد الطريق أمام الحداثة بمعناها العام والشامل، فرد عليه محمد زنيبر في العدد الموالي بمقال تحت عنوان "العودة إلى المجتمع المغربي"، ومما جاء فيه: «ومن الأخطار التي أرى ضرورة تجنبها هي هذا التهافت التعبدي على ثقافة أوروبا وأدبها، لنحاول أن نقدم ذلك كنماذج لأدب جديد في مجالاتنا»[1] وسيرد محمد برادة على الأستاذ زنيبر في العدد الرابع من أقلام بمقال "الثقافة بين التمثل والإبداع"، ومما جاء فيه: «إن كفاح الإنسان الذي استغرق زمنا

[1] محمد زنيبر، العودة إلى المجتمع المغربي، مجلة أقلام، العدد، 3، س. 64، ص. 3، 4.

طويلا لتدليل الطبيعة، والسيطرة على خباياها يجب أن يوجه الآن لتغيير "طبيعة" البشر، وتخليصها من رواسب العصور الوسطى، وعصور المثاليات والغيبيات، لتتمكن من التكيف مع حضارة المستقبل... وهي حضارة ميزتها الأساسية "إعادة النظر" في جميع القيم القائمة، وإعداد عقليات جديدة تستطيع الانسجام مع عالم متضخم في كل المجالات...»،[1] ويقول أيضا في سياق آخر من نفس المقال: «أعتقد شخصيا أن الارتداد إلى الماضي من خلال الدعوة إلى الأصالة، ورفض الاستفادة من النتائج المضمونة للقوة الحضارية، يشكل عقبة أساسية في طريق التخلص من نمط عتيق للمفاهيم والعلائق. فبدلا من أن نتساءل عما إذا كانت الحقائق العلمية موافقة لروحنا الإسلامية، أو لمقوماتنا الشخصية، يجب أن نرى ما إذا كانت هذه الحقائق ستعمل على انعتاق الجماهير المحرومة».[2]

وإلى جانب هذه المناظرة انتشرت كتابات أخرى همت أجناسا مختلفة، تعرضت للمسألة الدينية في مغرب الاستقلال، ومكانة الدين في حياة المغاربة، من منظور التقدم، والحداثة، والوحدة الإنسانية، وقد حوت مجلة رسالة الأديب نماذج من هذه الكتابات، من أبرزها: الندوة التي نظمتها جمعية الأديب بمراكش سنة 1958م حول "ما هو الدور الذي لعبه الدين في صنع تاريخنا؟"،[3] ومحاضرة الأستاذ عبد الله إبراهيم حول "نحو ثقافة متحررة" في نفس السنة[4]...إلخ.

إن النقاش الذي دار بين محمد زنيبر ومحمد برادة في الستينيات، وقبله بعض المقالات التي ضمتها مجلة رسالة الأديب مس في العمق أساسا إستراتيجيا من أساسات الهوية المغربية وهو الإسلام، فالإجماع البديهي حول مفهوم الإسلام ودوره، الذي كان شامة المثقفين المغاربة عبر التاريخ، أمسى متجاوزا، حيث ظهرت في المغرب في

[1] محمد برادة، الثقافة بين التمثل والإبداع، مجلة أقلام، العدد، 4، س. 64، ص. 4.

[2] نفسه، ص. 6.

[3] انظر تقرير الندوة في مجلة رسالة الأديب، العدد 2، سنة 1958، 134- 138.

[4] عبد الله إبراهيم، نحو ثقافة متحررة، مجلة رسالة الأديب، العدد المزدوج 6/ 7، سنة 1958، ص. 5- 13.

هذه الفترة شريحة مهمة من المثقفين، تطل بأعناقها على تجربة الغرب، وتدعو -في أحسن الأحوال- إلى "إعادة النظر" في دور الدين في المجتمع المغربي، وإعادة بناء مفهوم الأصالة، الذي أضحى ممزقا بين ثلاث نظرات على الأقل -حسب العروي- الشيخ، ورجل الدين، وداعية التقنية.[1]

ولعل أقوى تعبير نظري وفلسفي عن هذا التحول الهوياتي الذي طال مفهوم الإسلام ودوره في المجتمع المغربي هو مشروع الشخصانية الإسلامية الذي بلوره الفيلسوف محمد عزيز الحبابي ردا على فشل محاولة الإصلاح الروحي التي قادتها السلفية بالعالم العربي من جهة، ومنعا للتهافت التعبدي -بتعبير زنيبر- على مباهج الحضارة الغربية من جهة ثانية، وقد تجسد مشروع الحبابي في عدة كتب بالفرنسية قبل أن تترجم إلى العربية، ومن أبرزها: من الكائن إلى الشخص (1962)، الشخصانية الإسلامية (1964)، من المنغلق إلى المنفتح (1961). ويعتبر مشروع الشخصانية نوع من التوفيق الفلسفي الرائع بين الأصالة وضرورات المعاصرة.

- **استعمال اللغة الفرنسية في الحقل الثقافي والدلالة الهوياتية:** إن استعمال اللغة الفرنسية في التعليم بالمغرب المعاصر أنهى احتكار اللغة العربية للمجال الثقافي، ومنح لغة فولتير موطئ قدم قوي، حيث أمست الثقافة المغربية ليست بالضرورة عربية اللسان، كما كان الشأن في السابق، بل أصبح جزء مهم من هذه الثقافة مكتوب باللغة الفرنسية، وهذه الظاهرة بالغة الدلالة فيما يتعلق بمآل الهوية المغربية ومفهومها. ومن ثم سنحاول في هذه الفقرة اكتشاف حجم النفوذ الفرانكفوني في مغرب الاستقلال من خلال تطور كل من الإصدارات العربية والفرنسية في الحقبة المعاصرة، والخصائص النوعية لهذا التطور، وتتويج ذلك بتقييم آثار هذا التطور باتجاهاته المختلفة على الهوية المغربية.

---

[1] عبد الله العروي، الأيديولوجية العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 3/ 2006، ص. 33-48.

بالرغم من ضعف المصادر البيبليوغرافية التي تهم تطور الطباعة في مغرب الاستقلال، والنقص الذي يعتري الكثير منها، فإننا سنسعى لإلقاء الضوء على هذه الإشكالية انطلاقا مما توفر لنا من منشور، وبصفة خاصة الدراسة القيمة للدكتور محمد الصغير زنجار حول "الطباعة في مغرب الاستقلال (1955- 2003)"،[1] التي تتبعت التطور الكمي للمطبوعات المغربية، من خلال مؤشرات نوعية، كالسنوات ولغات التأليف....

فما بين سنتي 1955 و1974، بلغت نسبة المطبوعات المغربية الثقافية والأكاديمية باللغة الفرنسية 51,50%، في حين لم تتجاوز المطبوعات العربية نسبة 48,50%، وبالرغم من تراجع نسبة المطبوعات الفرنسية في السنوات التالية حيث اقتربت من الثلث في السنوات الأخيرة (23%)،[2] فإنها لا زالت تشكل معطى بنيوي في الثقافة المغربية المعاصرة، والذي يزيد من أهمية هذا الاستنتاج هو النفوذ القوي للغة الفرنسية في بعض المجالات الثقافية وخاصة الاقتصاد والإدارة والسوسيولوجيا...، فمعظم المنشورات الفرنسية في المغرب ما بين 1955 و2003 كانت في هذه التخصصات، حيث بلغت نسبة كتب الاقتصاد 22 % من النسبة العامة للمنشورات الفرنسية في هذه الحقبة، مقابل 3% من المطبوعات العربية في الميدان الاقتصادي، ونفس الشيء يتكرر مع الإدارة حيث تمثل المطبوعات الفرنسية نسبة 3%، في حين تمثل المطبوعات العربية في نفس المجال 0,3%.[3]

إن هذه الأرقام تدل بشكل ملموس، وقاطع، على تفرنس قطاع حيوي وحديث من العقل الثقافي المغربي، وبالتالي أمست الثقافة المغربية -انطلاقا من هذه الأرقام، والحقائق- مصابة في أحد خصائصها النوعية والتاريخية وهي العروبة، ولا

[1] Mouhamed -Sghir Janjar, L' édition dans le Maroc indépendant : 1955- 2003 (état des lieux), (http://www.rdh50.ma/fr/pdf/contributions/GT9-3.pdf).

[2] Ibid., pp. 51.

[3] Ibid., pp. 55.

تحتاج إلى دليل أو تحليل لربط الصلة بين مكانة الفرنسية في التعليم ومكانتها في المشهد الثقافي المغربي.

ومن ناحية أخرى أمست اللغة الفرنسية في المغرب "لغة أم" بالنسبة لعدد من المغاربة، وإن كان قليلا فإنه آخذ في الارتفاع، تبعا لانتشار التعليم الخاص الفرنسي، وتوسع النشاط التعليمي للبعثات الأجنبية بالمغرب وبشكل خاص البعثة الثقافية الفرنسية (المعهد الثقافي الفرنسي)،[1] وبالرغم من عدم توفرنا على أرقام ودراسات دقيقة حول هذه الظاهرة الحساسة، فإن آثارها ظاهرة للعيان، والذي يؤسف له من زاوية موضوعنا أن معظم هؤلاء الناطقين بالفرنسية خرجوا من جلباب العربية لغة وثقافة، ويجدون صعوبة كبيرة في الاتصال بالمصادر الثقافية للعروبة والإسلام، إذ جلها مكتوب باللغة العربية.[2]

- الحركة الثقافية الأمازيغية: استهدفت السياسة الثقافية لسلطات الحماية بالمغرب زعزعت الاستقرار اللغوي الذي كان يعيشه البلد، والتدخل على مستوى وظائف اللغات المتداولة، وخاصة اللغتين العربية والأمازيغية، وفي هذا السياق سعت إلى نقل الأمازيغية من لغة التواصل الاجتماعي إلى لغة ثقافية منافسة للعربية بعد أن كانت متكاملة معها، حيث مكنتها من الحرف، ودعمت البحث العلمي في إطارها، وأنشأت المدارس البربرية.... ومن الواضح اليوم -بعد أن أميط اللثام عن وثائق الحماية- أن حماس الفرنسيين للغة الأمازيغية في الفترة الاستعمارية، والدعم السياسي الكبير الذي استفادت منه، لم يكن حبا في الأمازيغية والأمازيغ، ولكن

---

[1] Fouzia Benzakour, Driss Gaadi, Ambroise Queffelec, op. cit., pp. 76.

[2] بلغ عدد الكتب المطبوعة باللغة العربية التي تتناول موضوع الإسلام ما بين سنتي 1955 و2003 بالمغرب 1011 كتاب، بينما لم تتجاوز نظيراتها المطبوعة بالفرنسية 122 كتاب في الفترة نفسها، الشيء الذي يدل على أن العربية لا زالت المصدر الرئيس لتلقي الإسلام ثقافيا.

Mouhamed –Sghir Janjar, L' édition dans le Maroc indépendant : 1955- 2003 , (état des lieux),op, cit., pp. 55 (http://www.rdh50.ma/fr/pdf/contributions/GT9-3.pdf).

حافزه الرئيسي هو تقليص نفوذ العربية ومن ورائها الإسلام باعتبارهما ركنا الهوية المقاومة للمشاريع الاستعمارية في المغرب الأقصى.[1]

لكن، السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق، ما دور لغة التدريس في هذه الخلخلة الوظيفية؟.

يقول ليوطي في دوريته الشهيرة، التي أشرنا إليها سابقا: «علينا أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية»،[2] وتنفيذا لهذه الأوامر، وغيرها، استقلت اللغة الفرنسية بالتعليم في المناطق البربرية، وأمست الواسطة الوحيدة في تلقين البربرية، وفرض الحرف اللاتيني في تدريسها...، وقد أدت هذه السياسة التعليمية مع مرور الوقت إلى ظهور نخبة حركية أمازيغية تحس بنوع من العطف والحميمية اتجاه الفرنسية، وباردة وغير مكترثة بمصير العربية، وهو ما جعل الكثير من عناصرها لا يرون في السياسة الفرنكفونية أي تهديد "لهويتهم"، ولم يقفوا موقفا واحدا مضادا لسياسة الفرنسة.

وهكذا، إن خصوصية العلاقة بين لغة التدريس (الفرنسية) والدعوى الأمازيغية التي ترجع إلى الفترة الاستعمارية جعلت الحركة الثقافية الأمازيغية بعد رحيل الاستعمار مناصرة للفرانكفونية وضد العربية، أو في أحسن الأحوال محايدة اتجاه الأولى ونشيطة ضد الثانية، إلى درجة أمست هذه الصفة علامة هوياتية مميزة للسلوك الثقافي والسياسي الأمازيغي في مغرب الاستقلال.[3]

---

[1] لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع انظر على سبيل المثال: عبد العالي الودغيري، الفرانكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، م. س. ومحمد الأوراغي، التعدد اللغوي: انعكاساته على النسيج الاجتماعي، منشورات جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط. 1/ 2002، ص. 126- 129.

[2] عبد العالي الودغيري، الفرانكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، م. س. ص. 86.

[3] إن هذه الحميمية اتجاه الفرنسية تجلى في الحساسية المفرطة اتجاه التعريب، حيث رأى الآباء المؤسسين وعلى رأسهم محمد شفيق في محاولات التعريب محقا للهوية الأمازيغية في حين لم يظهر أي رد فعل اتجاه مشاريع الفرنسة، (محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، م. س. ص. 52).

خاتمة انشقاق الهوية

لقد حاولنا على امتداد الصفحات السابقة تتبع التفاعلات المختلفة بين لغة التعليم والهوية في المغرب الأقصى، في محطتين تاريخيتين دالتين: الأولى وسيطية، والثانية معاصرة. وقد أتاحت لنا هذه المتابعة فرصة التقدير الموضوعي لآثار لغة التدريس على الهوية المغربية، ودينامية هذا التأثير. وسنحاول في نهاية هذا المطاف تقديم أهم خلاصات هذه الدراسة:

1- دخلت اللغة العربية المغرب الأقصى في جوار الدين، وتحت مظلته، ولم يحدث أبدا أن تقدمت عليه، ولم يكن طموحها في العقود الأولى من تاريخ الإسلام بشمال إفريقيا يتجاوز الدور الرسالي أو الوظيفة الدينية، وكانت تقدم نفسها مجرد حامل (Support) للهوية "الإسلامية- الأمازيغية"، غير أن التطورات الثقافية والحضارية التي شهدها المركز الإسلامي في الشرق، وهبوب رياح هذه التطورات على بلاد المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري والقرون التالية...، أحدثت تحولا جوهريا في وظيفة اللغة العربية ومكانتها التداولية، حيث أمست لغة الثقافة والتعبير المجرد بالجناح الغربي الإسلامي، ومنذ ذلك الحين تحول وضع اللغة العربية من لغة حاملة للهوية إلى هوية.

وفي هذا السياق، يعتبر مفهوم المغرب العربي مرادف نظري لحقيقة تاريخية جسدها تحول العربية عمليا إلى لغة الثقافة المغربية، بعد حوالي قرنين من الزمان تقريبا من دخول الإسلام إلى المغرب الأقصى، وهو -أيضا- تجاوز ثقافي لمفهوم المغرب الإسلامي. وتزامن هذا التطور مع ما أسميناه ب"ظهور العلم" بالمغرب الأقصى. ولم يكن مدلول "المغرب العربي" منذ ظهوره وإلى الفترة المعاصرة يعني انقلابا ثوريا في الحقل التداولي، واتخاذ أهل المغرب اللسان العربي بديلا عن اللسان البربري، بل على العكس من ذلك، استمر وجود اللسان المحلي في نفس الحدود تقريبا التي كانت معروفة من قبل، ومن ثم فمدلول المغرب العربي في هذه الآونة، كان يعني بالدرجة

الأولى الانتماء الرسمي والطوعي للمغاربة بمكوناتهم الإثنية المختلفة للثقافة العربية فقها، وشعرا، وعلوما عقلية....

غير أن مردود اللغة العربية (لغة تدريس) على مستوى الهوية تجاوز الجانب الثقافي أو العقلي إلى جانب أعمق منه وهو الوجدان، فلأول مرة أحس المغاربة مع العربية بوحدة الانتماء الحضاري، وهو ما جعل منهم أمة مشتركة الخصائص، مسنودة بأمة أكبر وأعظم، وهي الأمة العربية والإسلامية.

2- دخلت اللغة الفرنسية مجال التعليم في المغرب الأقصى في أواخر القرن 19، وتعزز حضورها في عهد الحماية الفرنسية حيث أصبحت اللغة الرسمية لسلطات الحماية، وأكره المغاربة خلال هذه الفترة بأشكال مختلفة على التعلم بالفرنسية، وكان هدف الاحتلال من خلال توسيع التعليم الفرنسي وبالتالي تداول الفرنسية هو تفكيك مرجعية "المقاومة الوطنية"، التي في جوهرها مرجعية إسلامية عربية، ومن ثم تمهيد الطريق للاستغلال الاستعماري، وقد استطاع من خلال هذه الوسيلة أن يستقطب منذ وقت مبكر بعض ضعاف العقول من المغاربة، الذين سيكونون عونا له على مشاريعه الاستغلالية.

غير أن إشكالية استخدام اللغة الفرنسية في التعليم المغربي أخذت في الظهور بعد الاستقلال، إذ لم تستطع سلطات الاستقلال بالرغم من حماسها الوطني شطب لغة المستعمر، وتمكنت هذه الأخيرة تحت دثار الانفتاح الحضاري، وضرورات التنمية العلمية والتقنية أن تحجز لنفسها مكانا آمنا في النظام التعليمي المغربي، فهل استطاعت اللغة الفرنسية قهر شهوتها والاكتفاء بوظيفة التفتح؟، ثم ما هي انعكاسات استمرارها على الهوية المغربية؟.

إن طريقة إدماج اللغة الفرنسية في التعليم بعد الاستقلال، والدعم السياسي الذي لاقته من طرف بعض عناصر "جيل الاحتلال"، الذي كان يدافع على الفرنسة من منطلق عقلاني ممزوج بنوع من الإعجاب بالآخر، أدى إلى امبريالية

وظيفية من طرف اللغة الفرنسية، بحيث حافظت على وظائفها التي كانت لها في دولة الحماية، مع تعديلات طفيفة، وخاصة في مجالات الإدارة، والتعليم العالي، والاقتصاد، والمالية...، وأعادت بناء شرعيتها الحضارية، بحيث لم تعد في نظر الكثيرين إرثا استعماريا وجب التخلص منه.

وهكذا، أدى رسوخ قدم الفرنسية في التعليم المغربي بأشكاله المختلفة إلى مردود متباين على الهوية المغربية، تجلى أساسا في:

- إنهاء احتكار العربية للثقافة المغربية، وإشراك الفرنسية معها حيث أصبح البعض يتحدث عن الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية.... ويشكل اليوم الإنتاج الثقافي المغربي الفرانكفوني حوالي ثلث الإنتاج الوطني؛

- بروز توترات ثقافية حادة جراء عملية الإخصاب غير الطبيعية للثقافة التقليدية بالثقافة الفرنسية، وفي مقدمتها إشكالية الأصالة والمعاصرة؛

- ظهور جيل من المغاربة تعتبر الفرنسية لغتهم الأم، لغة البيت والمدرسة والعمل....

إن التطور الذي شهدته الهوية المغربية في العقود الأخيرة، والانعكاسات المختلفة التي صاحبت استقرار الفرنسية في الكيان المغربي، لم تفصح بعد عن صورة واضحة وتامة للهوية المستقبلية للمغرب، غير أنها كشفت عن انشقاق مزمن في الهوية العربية- الإسلامية، وتصدع داخلي خطير مس مفهوم الإسلام، وحقيقة الانتساب للعروبة، ومفهوم الوحدة الثقافية. ولعل أبرز أسباب هذا الانشقاق، والتوترات العالقة به، تعطيل الدينامية الذاتية للهوية واستبدالها بدينامية أخرى جل عواملها تقع خارج البنية.

وصفوة القول، إن التساهل أو التهاون في المراقبة الوظيفية للغة الأجنبية، والإذن لها بتجاوز الوظائف الرئيسية التي من أجلها سمح لها بالوجود يؤدي إلى اضطراب هوياتي خطير، يؤثر على تماسك الجماعة وانسجامها الثقافي، ويفسح الطريق

أمام تحول هوياتي سيؤدي -لا قدر الله- مع مرور الزمان، وببطء إلى إضعاف روابط المغرب الأقصى مع الأمة العربية.

المصادر والمراجع

المصادر:

البكري، أبو عبيد،

- المغرب في بلاد إفريقية والمغرب، منشورات دار الكتّاب الإسلامي، القاهرة، ب. ت.

البشاري، المقدسي،

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ط. 2/ 1902.

التادلي، ابن الزيات،

- التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بالرباط، ط. 1984/1.

التازي، عبد الهادي،

- جامع القرويين، دار نشر المعرفة، الرباط، ط. 2/ 2000.

الجيراري، عبد الله بن العباس،

- التأليف ونهضته بالمغرب، منشورات نادي الجيراري، مكتبة المعارف، الرباط، ط. 1/ 1985.

ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي،

- صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط. 1992.

الحسني، محمد بلبشير،

- مقابلة خاصة أجريناها معه حول موضوع التعريب بعد الاستقلال سنة 1956.

ابن حزم، أبو محمد علي،

- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط. 6، ب. ت.

ابن خلدون، عبد الرحمن،

- المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1/ 1992.
- كتاب العبر، ج. 6، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1/ 1992.

الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن،

- معالم الإيمان، الناشر مكتبة الخانجي، مصر، ط، 2/ 1968.

الدرقاوي، محمد الأمين،

- تأملات وآراء حول التعليم الأصيل بالمغرب، مطبعة الأمنية ومكتبها بالرباط، 1975،

الرقيق القيرواني،

- تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 1/ 1994.

الزهري، أبو عبد الله،

- كتاب الجغرافية، ت. محمد حاج صادق، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ب. ت.

السبتي، محمد بن القاسم الأنصاري،

- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيِّ الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط. 3/ 1996

بن شقرون، أحمد،

- مواقف وآراء رابطة علماء المغرب من التأسيس إلى المؤتمر العاشر، منشورات رابطة علماء المغرب،

الشهرستاني، أبو الفتح محمد،

- الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت،

صالح، أبو علي،

- كتاب القبلة، مخطوط، ضمن مجموع، رقم، 985 ق.

صاعد الأندلسي،

- طبقات الأمم، نشره الأب لويس اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن

- فتوح مصر والمغرب، ت. شارلز توري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة، ب. ت.

عياض اليحصبي، القاضي،

- ترتيب المدارك، ج. 5، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط. 2/ 1982.

ابن عذاري، المراكشي،

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج.1، دار الثقافة، بيروت، ط. 2، 1980.

المالكي، عبد الله بن محمد،

- رياض النفوس، تحقيق البشير البكوش، ج. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2/ 1994.

المراكشي، ابن عبد الملك،

- الذيل والتكملة، القسم الأول من السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984.

مؤلف مجهول،

- مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط، ط. 1/ 2005.
- الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 1/ 1979.

مخلوف، محمد،

- شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ.

الونشريسي، أحمد بن يحيى،

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج. 11. تحقيق محمد حجي وجماعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1/ 1983.

الوزاني، محمد حسن،

- مذكرات حياة وجهاد، ج. 1، منشورات مؤسسة محمد حسن الوزاني.

وثائق:

- الجريدة الرسمية للمملكة المغربية، الأعداد الصادرة ما بين 1913 و1960.
- المحاضر الرسمية لمفاوضات إيكس ليبان، نشرتها مجلة الملفات المغربية الكبرى، العدد 1، أبريل 1996، الرباط.
- نقائش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان في موريطانيا الطنجية، أعدها للنشر مصطفى أعشي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة نصوص ووثائق (2)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004.

المراجع العربية:

الأوراغي، محمد،

- التعدد اللغوي: انعكاساته على النسيج الاجتماعي، منشورات جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط. 1/ 2002.

أندري جوليان، شارل،

- تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1969.

بروفنصال، ليفي،

- مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، 1941.

التوري، ميلود،

- الأمازيغية والفنيقية وبينهما العبرية واليونانية، مطبعة الرباط نت، ط. 1/ 2009.

جان كالفي، لويس،

- حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة د. حسن حمزة، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. 1/ 2008.
- السياسات اللغوية، ترجمة محمد بحياتن، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط. 1/ 2009.

جبرون، امحمد،

- الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن 5هـ، منشورات دار أبي رقراق، ط. 1/ 2008.

حركات، إبراهيم،

- التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 2/ 1994.

شفيق، محمد،

- لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، منشورات مجلة تيفاوت، العدد 10/ 1997.

ابن الصغير، خالد،

- المغرب وبريطانيا العظمى في القرن 19م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط. 2/ 1997.

الطاهري، أحمد،

- المغرب الأقصى ومملكة بني طريف الرغواطية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1/ 2005.

الطالبي محمد، والعبيدي إبراهيم،

- الرغواطيون في المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1/ 1999.

العروي، عبد الله،

- مجمل تاريخ المغرب، ج. 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 3/ 1992.
- الأيديولوجية العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 3/ 2006.

غلاب، عبد الكريم،

- رهانات الفرنكفونية في علاقتها بمسألة التغريب والهيمنة، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، سلسلة الدفاتر القومية، 8، الرباط، 1999.

كوش، دنيس،

- مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة د. منير السعيداني، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. 1/ 2007.

كنون، عبد الله،

- النبوغ المغربي، مكتبة المدرسة ودار الكتّاب اللبناني، بيروت، ط. 2/ 1961.

اكصيل، اصطيفان،

- تاريخ شمال إفريقيا، ج. 6، ترجمة محمد التازي سعود، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007.

المنوني، محمد،

- مظاهر يقظة المغرب، ج. 1، منشورات المدارس، الدار البيضاء، ط. 2/ 1985.
- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط. 2/ 1977.
- ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط. 3/ 2000.

الودغيري، عبد العالي،

- اللغة والدين والهوية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000.

المراجع الأجنبية:

Benzakour Fouzia, Driss Gaadi, Ambroise Queffelec,

- **Le Français au Maroc : Lexique et Contacts de Langue,** Bruxelles, 1Ed., De Boeck & Larcier s. a., 2000.

Chouraqui, André,

- **Histoire des Juifs en Afrique du nord.** T. 1. Du Rocher 1998.

Marcy, G.

- **Le dieux des Abadites et de Bargwâta**, Hespéris, T. XXII, 1953,

Seignobos, Charles,

- **La Méthode historique appliquée aux science sociales,** Paris, éditeur Félix Alcan et Guillaumin Réunjes, 190.

Sghir Janjar, Mouhamed Mouhame,

- **L'édition dans le Maroc indépendant : 1955- 2003 (état des lieux)**, (http://www.rdh50.ma/fr/pdf/contributions/GT9-3.pdf).

مجلات، دوريات، وندوات:

- مجلة اللسان العربي، العدد، 54، سنة 2002.
- أعمال ندوة أكاديمية المملكة المغربية حول "قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1993.
- أعمال ندوة أكاديمية المملكة المغربية حول "حلقة وصل بين الشرق والغرب: أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1985.
- مجلة عالم التربية، العدد الرابع، 1996.
- مجلة أقلام، الدار البيضاء، الأعداد الصادرة بين 1964 و1970.

-Revue Souffles, Rabat, N. 5, Année 1967,

- مجلة المدرسة المغربية، الرباط، العدد: 3، مارس 2011.
- مجلة رسالة الأديب، العدد المزدوج 6/ 7، سنة 1958.

فهرس

طوب بريس

العنوان رقم 22، زنقة كنكونة، المحيط، الرباط
الهاتف 21 31 73 37 05 (212+) - الفاكس، 28 39 26 37 05 (212+)
الموقع الإلكتروني www.toppress.ma
البريد الإلكتروني toppress2@gmail.com